شجرة العائلة

شاكر الانباري

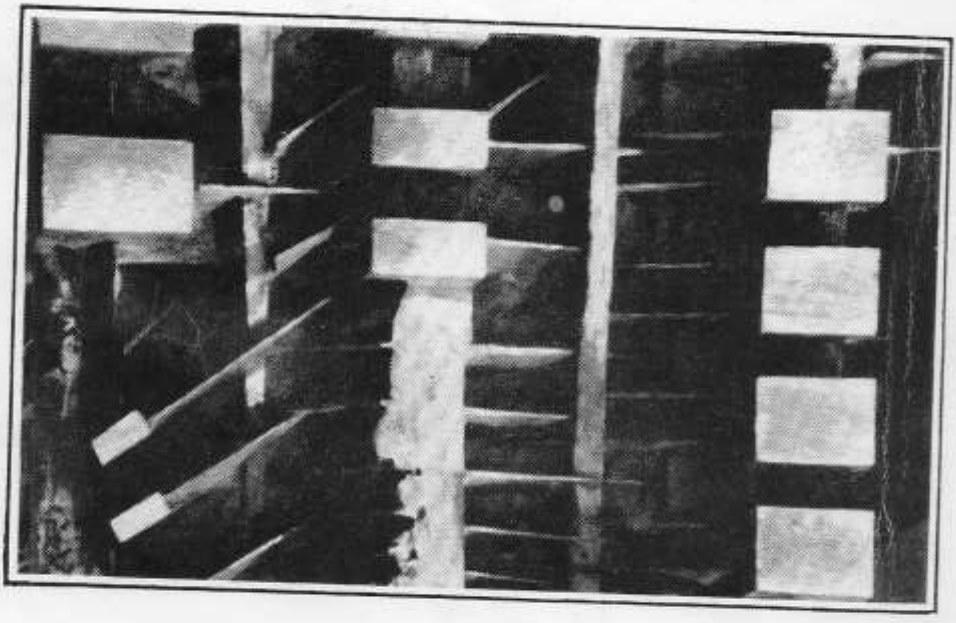

منشورات الصوت

شاكر الانباري

شجرة العائلة

قصص

منشورات الصوت ١٩٩٠

جدي الذي مات مرتين

مات جدي في العام 1980، وهو العام الذي اشتعلت فيه الحرب بين إيران والعراق. مات جدي فجرا، وكانت غابات النخيل كتلة رجراجة من العتمة، تطير فوقها أشباح غير مرئية لأموات القرية القدامى، وقد راحت الديوك تعلن بأصواتها الحادة رحيل جدي وحلول يوم جديد في حياتنا. وفي طريقي إلى بيت الشيخ، سمعت إطلاقات عمّي معلنة الخبر، أعقبها نباح الكلاب وكأنها توقظ القرية على الخبر الحزين. وجدت الشيخ "علي" يصلي على سجادة خوصيّة صلاة الفجر فأخبرته بوفاة جدي. هز الشيخ رأسه وتبسم، ثم سألني إن كان يمزح كالمرة السابقة، أم أنه جاد في موته؟ أكدت له أنني رأيته يغمض عينيه ويكتم شخيره ويقذف روحه بين يدي ملاك الموت. ومن حضر الوفاة؟ سألني الشيخ فأجبته أن شجرة العائلة كلها شهدت خروج روحه، الأبناء والأحفاد وأبناء الأحفاد، وأبي هو الذي ألصق أذنه على صدره ليتأكد من الموت. قال لي الشيخ وهو يثني سجادته الخوص بتمهل، إنه سيغير ملابسه ويأتي، ولا حاجة لانتظاره. رجعت في الطريق نفسه إلى البيت، فألفيتهم منشغلين بوضع ألواح خشبية لغسل الجسد في المخزن، وهو غرفة من الطابوق النيء تقع على بعد أمتار من فسحة بيتنا. سخنت النسوة على عجل قدرا من المياه، وأحضرن صابون الغار والشنان واليانسون، وأخرجت أمي الكفن القديم المخاط بإتقان، والمطوي بعناية منذ الموت الأول. وبدأ أبناء القرية يتوافدون على بيتنا لترتيب الدفن. ومع بزوغ الشمس من الأفق بعث أبي أربعة رجال من أقربائنا إلى المقبرة لحفر قبر جديد. حمل الأربعة معاولهم، ورفوشهم، ووضعوا برميلا من المياه على حمار قوي لتسهيل الحفر، ثم مضوا عبر غابات النخيل إلى الشمال. وكانت المقبرة تبعد خمسة كيلومترات عن القرية، وسيسكن جدي هناك، بعيدا عن شجرة التوت، وضحكات أحفاده، ونسمات نهر الفرات. لن يسمع بعد اليوم هدير مضخات المياه، ولن يشم أريج القمح والذرة، ولن يرى وجوهنا التي أحب ملامستها بأصابعه الخشنة المعوجّة من الشيخوخة. وصل الشيخ علي فولج رأسا إلى المخزن، شمّر عن ساعديه،

وطوى دشداشته، ثم تأهب لاستقبال الميت، وهو بادي القلق، يسبّح بحمد الله، ويحوقل، ويصلّي على النبي مثلما فعل في المرة الأولى التي غسل فيها جدي ولم يكمل غسله.

في المرة الأولى مات جدي عند منتصف الليل، وظل أبي ساهرا على جسده في غرفة الضيوف، فالميت لا ينبغي أن يترك وحيدا. وبعد أن أضاءت الشمس سطوح البيوت وعيون البقر وأمواج النهر بأشعتها الذهب، أوفدني أبي إلى الشيخ علي بعد أن أطلق عمي ثلاث رصاصات. اجتزت الطريق باكيا، ولم يخطر لي يوما بأن جدي سيموت، حاله حال النخيل المحيط بالبيت، ونهر القرية، وشجرة التوت العجوز التي أكل من ثمارها شابا وقال إن توتها الأسود أشهى من العسل، وإنها شجرة أصلها من الجنة. وفكرت أنه سينام وحيدا في المقبرة، ولن يجد من يحميه من الضباع وبنات آوى حين يجنّ الليل وتصطخب الريح. مات جدي شتاء، بيوم بارد شاركتني فيه البكاء شمسنا الصفراء، والغيوم، ونوارس النهر. وفي ذلك اليوم الشتائي غلت أمي وقريباتي قدرا كبيرا من المياه، عطرنه بالكافور والشنان، وكل ما خطر على ذهنهن من أعشاب. ثم حمل الرجال جسد جدي وأدخلوه المخزن، وبدأ الشيخ علي عمله بدقة ودراية، وكنت أحدّق من شق الباب إلى يديّ الشيخ المدربتين، وفكرت أنه سيدفن من دون غسل، فأشفقت على الشيخ، وجدي، وعلى النساء المولولات في الفناء. يدا جدي متصالبتان على صدره، لحيته مشذّبة بيضاء، ووجهه حقل تجاعيد، انتشرت على بشرته نقاط سود أشبه بالنمش ظلت تتكاثر على مر الزمن. رأيت القدر مركونا على الجدار وجدي ممددا على ألواح الخشب عاريا، نحيفا، مصفر الجلد. غرف الشيخ المياه المعطرة بطست نحاسي أحمر فهجست أن جدي سيفيق ما إن يلامسه الماء، فهو لا يستطيع احتمال سخونة مثل تلك. وهذا بالضبط ما حصل. فبعدما طرطش الشيخ المياه على رأسه اللامع حرك جدي يديه المتصالبتين ومدهما جنبه على الخشب. صاح الشيخ بصوت ثاقب: الله أكبر الله أكبر،

ثم ناداه باسمه، وراحت أصابعه تمسد الصدر، والبلعوم، والبطن. لم أصدق أنه حي، ولم يصدق الشيخ أيضا إلا بعد أن غرف طستا ثانيا من الماء المغلي وسكبه عليه، فما كان من جدي إلا أن عطس وتنفس وارتعشت شفتاه. الميت حي، الميت حي، ردد الشيخ ذلك ثم ترك جدي وحيدا، وأعلن الحدث للملأ المحتشد حول المخزن، فانقلب كل شيء إلى نقيضه. كفكفت النسوة دموعهن، وغنت العصافير في السعف، وتذهّبت أشعة الشمس أكثر من ذي قبل، وداخلتني فرحة عارمة لم أشعر بمثلها قبلئذ. أرسل أبي إلى حفاري القبر من يبلغهم بانتفاء الحاجة إلى الحفر فالميت حي، وذبح أبي خروفا للمعزين والمهنئين، أما جدي فألبس ملابس نظيفة ومدت له أمي فراشا وثيرا، وأحاط به الرجال والنساء والصبيان. لكنه لم يعد إلى الكلام إلا حين انتصف الليل وتفرق المعزون والمهنئون، وجاء كلامه هذيانا امتد يومين طويلين علينا.

تكلم مبتدئا بالنساء اللواتي ضاجعهن سرا حتى أنه سماهن بأسمائهن وأشار إلى الأماكن بوضوح، بعثر مغامراته بيننا دون وجل ويعود تاريخ بعضها إلى عشرات السنين السابقة. وعند انتصاف الليل طلب من أمي جلب فرسه الحمراء فهو ذاهب لغزو قبيلة من البدو مضاربها قريبة من المقبرة. طلب منها أن تملأ المعلف بالتبن، وتخلطه بالشعير، فالغازي لا ينبغي أن يغير على أعدائه بفرس جائعة، وكنا نحن المحيطين به حائرين بين الضحك والحزن، فقريتنا ودعت آخر فرس إلى بطون الكلاب قبل أن أولد أنا. إنهم قادمون، يصرخ جدي بأقرانه الشباب، عليكم بالاختباء، الجندرمة الأتراك لم يدعوا أزواجا لفتيات القرية، وحرب "السفر برلك" أهلكت الزرع والضرع.

رحل الليل على خيوله السود، ونورت الشبابيك بالفجر وأحس جدي بالتعب، تراخت حنجرته وتقهقرت كلماته وخفتت، ثم تحولت إلى أنين موجع وجمجمة تلاشت هي الأخرى مع

الجزيرة من دون مدافع. كنت أحمل في جعبتي خمس رصاصات فقط، أطلقتهن واستخدمت بارودتي عكازة.

المجتمعون في الغرفة رانت عليهم الدهشة، ودمعت عيونهم من دخان المنقلة الرابضة وسطهم، وخشينا نحن من انعطاف جدي المفاجئ إلى حكايات النساء، ولم نتنفس الصعداء إلا بعد أن غادرنا الضيوف واحدا بعد واحد. رجعت أمي إلى سؤاله إن كان بحاجة إلى طعام. ومن له حاجة للطعام، رد جدي متبسما، وظننا أنه استعاد وعيه، أكلنا الرز واللحم في عرس عبدال هذا العصر، ومن يذق طعام الأعراس تنقطع شهيته. عبدال يا عبدال، هل هم قادمون لاحتلال المدن، جهز حالك واحضر سلاحك، فأحضان الزوجة لا تجلب الأمجاد. مات عبدال من ذاكرة القرية منذ عشرين سنة بعد أن حكم عليه بالسجن المؤبد لقتله قصّابا وابنه في مشاجرة حول نقود. استولى الدخان على عقل جدي وسقطت حنجرته في ظلمة الليل، فتراخت عظامه وانتظم تنفسه، وهوى رأسه اللامع أخيرا على المخدة. لم يفق إلا ساعة الظهيرة، فتح عينيه الصغيرتين وأجال بصره في الوجوه، وانحدرت الدموع من عينيه، فخاطبه أبي بصوت رقيق حان: هل أنت جائع يا أبي؟ نعم، أجابه بنبرة من يشعر بالذنب. قدمت له أمي الشوربة والدجاج مع الخبز فأكل بنهم دون أن يقاطعه أحد. طلب شايا فسقيناه، ودخانا فبرم له أبي لفافة وضعها في مشربه الطويل المزخرف، وأشعلتها أنا بقداحته النفطية العتيقة، ودون أن يسأله أحد راح جدي يحدثنا عن رحلته العجيبة: اختطفني ملك كأنه بازي، له أجنحة من حرير وعيون من الزمرد، كنت بين يديه مثل عصفور مرتجف، وطار بي إلى السماء، ومن بين طبقات سندسية، وفرجات مرجانية، وكوى مؤطرة بالعاج، أراني عالم الأرض وقال لي انظر. نظرت فاندهشت. إنني طفل صغير وضعوا على رأسه غطاء من القطيفة مجمّلا بالودع والخرز يلعب بين بيوت الشعر والمراعي الصحراوية، وبدت الصحراء سجادة خضراء تسرح

في جنباتها حمير وبغال وأغنام. كلاب تنبح على ضيوف ملتحين، ونساء يغزلن الصوف على مغازل من الخشب. هي سنوات الطفولة. أدار رأسي قليلا وقال لي انظر فنظرت: النهر ممتلئ بسفن الانكليز يسوقها سيخ بلحى مشدودة بخيوط من شعر الماعز، وعمائمهم تشبه عمائم الأولياء، يتقافزون بين أكداس الورق، والعتاد، والبنادق، وبالات الألبسة العسكرية الضخمة، هم الذين أحرقوا بيوتكم واحتلوا مدنكم واستحيوا نساءكم، لولاهم لظلت دولة بني عثمان عامرة إلى أن تقوم الساعة. لم يعد أمامكم إلا انتظار المخلّص، حيث يندحر بني يهود ويتشتتون في بقاع الأرض ثانية، تحاربهم الصخور والشجر، تقول الصخرة بصوت صريح يا مسلم إن وراء ظهري يهوديا مختبئا، عاجله بالسيف والخنجر، وصوب عليه بالبارودة. ذاك وقت ستعيش فيه الحملان مع الذئاب، والدجاج مع الثعالب، وتختلط فيه الرجال بالنساء، وكل ذلك مدون في كتاب مسطور. ثم ارتفع بي قليلا حتى رأيت بيوت الطين وتنانير القرية وباصات الخشب ودخان مضخات المياه الرابضة على كتف الفرات، وإذا كل شيء مختلف عن سابقه. إنها سنوات كهولتك. بعدها نزل بي فلامس جناحاه أوراق التين، وسعف النخيل، وأشجار الطرفاء، وأسماك النهر، وقال لي ودّع من تودع، واغرس ما تغرس، تزوج كما تشاء، وتكلم بما يأمرك قلبك، فلن تموت هذه المرة. سترى أحفادك وأبناءهم، وسترى أمورا عجيبة لا يقبلها عقلك، لكن تمنّ الموت وسأجيئ إليك فأطير بك إلى السماء بلا عودة هذه المرة.

كم تبدل جدي بعد موته الأول، انسحب مثل محار إلى عوالمه الداخلية وخبايا سنواته التي لا تحصى، فقلّ حديثه وتراخت أعضاؤه، ونما في وجه النمش مثل حقل من الذرة. صارت أمي تحمل الطعام ليأكل وحيدا، تضع يده في الماعون وتمضي، وصار أبي يلف له سجائر تكفيه ليوم كامل. وما إن تمت غيبة بصره كليا حتى أخذ يسمي البنين من أحفاده

بأسماء البنات، خالطا بذلك الجيل الأول من العائلة بالجيل الثاني، فجلب لنفسه التندر مرة والعطف مرات. وبعد التباسات كتلك، نادى جدي على ملك الموت أن تعال خذني، رأيت أكثر مما ينبغي لإنسان أن يراه.

وفي هذا اليوم الحزين، ومن خلال شقوق الباب، شاهدت جدي راقدا بين يدي الشيخ علي باستسلام، وقناعة مطلقة بالسفر. لا زفرة ولا رعشة. لم ألاحظ أي حركة في الأعضاء، واستقبل المياه المعطّرة ببرودة الموت راضيا، مستكينا، قانعا بموته الأبدي. غسل الشيخ زوايا الجسد وانحناءاته بأتم العناية، رش عليه العطر ونادى على الواقفين جنب الباب لمعاونته في تكفينه. وبعد إتمام العمل نقلوه محمولا بالأيدي ومدّدوه على النعش، وكان من خشب الصفصاف، ثم غطّوه بحرام صوفي أحمر. وقبل الظهيرة بساعة حمله الرجال على أكتافهم، واتجهوا به إلى المقبرة عبر بساتين النخيل، وغابات الطرفاء والشوك، وأجمات البردي. أحسست بعد أن غابوا عن البصر أن جدي مات ميتته الأخيرة حقا، وهو الآن بين ذراعي ملك الموت، طائرا فوق الصفصاف والتوت ودخان السيارات وأمواج النهر. لكنه لم يرحل وحده في ذلك الصيف الكئيب، بل حمل معه حياتنا السعيدة وإلى الأبد.

شارع الأقحوان

منذ زمن طويل لم يعد يتذكره، غابت شمس المدينة وخلفت وراءها شفقا أحمر مرعبا، كسا دجلة بالدم، جثم على موجه كالغمامة وهال مرآه الناس أجمع. ومن زمن طويل، شاهد المدينة تنسحب خلف الجدران طلبا للأمن واللذة، وليس حوله سوى الكلاب وخلاء الأرصفة والوحشة. رأى الكلاب تلوذ في الظلام، إلى المنعطفات والخرائب والأزقة هاربة من وقع خطاه الرائة على أسفلت شارع الأقحوان. كان يمشي بتراخ، عيناه تتقدان من الأرق، مؤمنا أن حياته لا تحتمل، لكن، ما الذي يمكن عمله وسط جنون المدينة وتمزقاتها؟ فبعد أن غاب الشفق وادلهمت السماء وحاصرته الرؤى، ظل في بحثه المتواصل عن منعزل ينام فيه ولا يجلب له الريبة. أمسك لحيته النافرة بيد ملطخة بالقلق والفحم، وانعطف من شارع الأقحوان المؤدي إلى الجسر المعلق، داخلا شارعا فرعيا تسامقت على جانبيه أشجار اليوكالبتوس وواجهات أبنية قديمة، يشم رائحة شناشيلها ومزاغلها وبراويزها، بألفة ابن المدن، وتزيد من العتمة المترسبة على فضاء ذلك الشارع المهجور. كان المكان يطفو على بحر من الهدوء، لكن ومن قاع ذلك الهدوء، ورغما عن سكينة النهر القريب، عادت وللمرة الألف، تلك الأصوات المرعبة تقض تماسكه وتهدم أمانيه. ظهرت من الليل وهدأته دوريات لاغطة ونداءات لاسلكية وقرقعة بنادق جزم أنها وبمثل هذا الوقت، لا بد أن تكون منبعثة عن مجمع قصر الرئاسة بحرسه وضيوفه ومفتشيه وضباطه ولجان الحرب ولجان السلم، فقرر الرجوع والابتعاد كي يهيم نحو الأحياء النائية، لولا الظهور المفاجئ لبناية خربة عتيقة كأنما انبجست من عالم الأوهام وأوقفته ليتأملها بدقة. لا أضواء ثمة ولا بشر. ولما لم يلمح أحدا يراقبه، تقدم إلى الباب المتآكل ودخله متوجسا، فجابهته رطوبة القدم ورائحة أسماك ميتة وعفونة لا يعرف مصدرها. ألفى نفسه وسط حوش مليء بالعلب الفارغة والزجاج المتشظي والأوراق. حوصر بأعداد هائلة من الغرف تحيط بالحوش مبنية من طابقين. ثمة على بعد

أمتار منه، لمح عمودا هائلا من الطابوق يرفع ثقل جدران لا ترى وفكر أنه سيكون متكأ مريحا لرأسه المتعب.

استلقى إلى جانب العمود وانغمرت عيناه بشكل قسري في ظلام غرفة على يمينه، يواجهه بابها المفتوح مثل عين حية، بعث مرآها الخوف بقلبه وتساءل عن السر الكامن وراء كثرة تلك الغرف وما تحويه. ملّ الظلمة فأدار رأسه إلى الجهة الثانية، فطالعته ظلمة أشد، عميقة متحركة. إنها غول، إنها سعلاة خارجة من أمواه دجلة، مارد من مردة بغداد تغريه الخرائب وتجذبه الكهوف. كلا، إنها شجرة توت هرمة هرم البناية، متشابكة الأغصان ذات تاج أسود وريح سلسة، فما كان منه إلا أن قام من مكانه ومشى نحوها. وضع يده على ساقها، تحسسه، يده التي من فحم ورعشة مست القشرة وارتطمت بالخربشات والندوب التي خلفها الزمن. وجهه ساق وتجاعيده خربشات كتبتها المدينة بمداد من الرعب والمطاردات وانعدام الأمان. لكن رغم ذلك، هو حي على الأقل، الشيء الذي لا يستطيع أحد انكاره. ولتوكيد نفسه وسط ليل المدينة المريب وسطوة هدوء البناية دخل أول غرفة وجدها أمامه. كان شباكها مفتوحا، الشباك ضوء متجمد لا ينبئ عن شيء ولا يكشف شيئا. سمع حركة خافتة واستراب من أمر خاف، فتراجع إلى الباب بإحساس فطري بالخطر، نما وكبر على مر أيام الخوف والتشرد. إنه مطارد من الزمن والشرطة والأطفال والحجارة ونوارس دجلة والكلاب أيضا، يسبح في عالم غير عالمه. وبفضول مرضي راح يلج الغرف واحدة إثر أخرى دون أن يعرف ماذا يبغي بالضبط، غير أنه راكن لإحساس لذيذ، إحساس المتسلل إلى ماض مليء بالألغاز والروائح البشرية والقدم، ماض عالق بالجدران والمسامات الآجرية وثنايا الشقوق، الماضي الخدر، المتوهج المفقود. الماضي الذي غفا في إحدى زوايا رأسه وها هو يستيقظ من جديد.

كان ثمة سلم يقود إلى السطح، راح يرتقيه علّه يقوده إلى استجلاء السر. تقدم بضع خطوات إلى غرفة الملوك والأميرات الجميلات ففاجأه انقذاف جسد أبيض طويل من إحدى الزوايا، مر بسرعة خاطفة بالقرب منه. كان كلبا رآه يقفز ثم تابع عدوه السريع إلى الشارع حتى غاب، وفكر أن دخول الغرفة يحتاج إلى جرأة استثنائية، لكن مع ذلك دخل عبدالله الكرخي متحسسا طريقه بصعوبة. دخل الغرفة ثم بحث عن النافذة. إنها هناك، نعم، تحجب دجلة كقطعة صلبة من الضباب. تقدم، تعثر، أمسك الدرفة العتيقة المغلقة كمحارة نهرية، عالج الخشب فصر والمغاليق فتكسرت، وأسفر له النهر عن مائه، ها هي الضفاف تقابله ويكاد يلمسها بيديه. الضفاف المنورة الوادعة الأشجار، النائمة الملتفة بجلال اليوكالبتوس وشموخ الأثل ورهافة الدفلى. لم حرم من كل ذلك الجمال؟ أحس برائحة إنسانية تتطامن في رأسه، رائحة لرجال ونساء وأطفال، لها حضور غريب لفه بأسار لذيذ. عبقت الرائحة من جدران البناية والزوايا المظلمة، من الشقوق والبصمات والأطر، من السنوات التي شعر بها تلف وتدور في فضاء الغرفة والسطح والبناية. خيل إليه أنه يسمع صراخا حادا يتلوى في المنعطفات ومنحنيات النهر، تحت الجسر وفوق الموج، يرى حركات سريعة لا تسفر عن نفسها، ويسمع إشارات ليلية تتناقلها القصور المطلة على النهر والسيارات المندسة في الأركان والرجال المريبون. ولينصرف من تداعيات ذهنه، ويتخلص من مجسّات الزمن المعلب داخل المبنى، ركز جل تفكيره بأضواء المدينة. أضواء الجوامع والعمارات والقصور والمداخن، أضواء السماء والأرض، أضواء الماء وأضواء الحباحب البريّة. الكون أمامه نجوم متدلية تخفت وتتألق، تنطفئ وتضيء. ارتجت السماء وانفرطت مصابيحها كثمار النارنج، وقد صعدت الثمار الذهبية إلى الظلمة الفوقية. كل شيء يصعد إلى الأعلى، الأموات والأحياء، الذنوب والحسنات، النجوم والعتمة. ثمة، في الأفق الشرقي، مواجهة قصور الحكم، شبحت

أربع نجوم. وعلى هيئة حزمة شمسية الإشعاع، تجمعت أنوار الضفة المقابلة لعينيه الواهمتين ووجهه الملون بالفحم والتجاعيد والحروق القديمة.

أغمض عينيه وحاصرته أجواء البناية بوشوشاتها ولغطها السري واستغاثاتها، اللغط شارات حروب ونفير، الوشوشات همسات أطفال مذعورين، وصوت قبل والتصاقات جسدية، الاستغاثات حشرجة وألم غير بشري واندفاعات أرواح تقسر على الخروج من أجسادها. يتطامن ذلك من القاع، قاع البناية والنهر والمدينة. أما كلمة "هنا" فقد نطق بها أحد ما كأنه يجيب على سؤال وجه بنبرة خفيضة لا يراد لها الوصول بعيدا. هل انطلقت من ضفة النهر أم من شارع الأقحوان أم من أرض البناية؟ وفي اللحظة نفسها، شعر بخطوات رجل يرتقي السلم، هادئة كانت وثقيلة، وواثقة من طريقها، إلا أنه لم يصل السطح. ها هو يلتفت إلى الباب علّه يرى طلعته المتوقعة، تلك الطلعة المرعبة المدججة الغامضة لا بد أن تكون بيضاء كالملح لون الموت. ولكي لا يمسك، لا يباغت في تلصصه على قاع المدينة وتلافيفها الخشنة، ولا يتحول إلى قطة نارية العينين أو كلب أبيض أو شبح إنسان، اندفع بكل قواه خارج الغرفة ثم نزل إلى الحوش بخطى واسعة باتجاه الباب.

وعند انبثاق أول نور خفيف في الأفق، وغياب النجوم وتلاشي الشموس الليلية، كان عبدالله الكرخي يهيم وحيدا في شارع الأقحوان.

آخر الرعاة

مضى زمن طويل على جنون "عناد."

آنذاك، كانت القرية تفك أسار عزلتها بهدوء، وتنفض عنها غبار السنين المتراكم .

فالحافلات أخذت تسير يوميا من القرية إلى المدينة، والكهرباء أنارت عتم النخيل وأحراش الحقول، طاردة من الأذهان خيالات الجن والشياطين وأساطير الليل القديمة. إنه زمن تواري قطعان الغنم، وحمير الدراسة، وخيول المحاريث، وبيوت الشعر .

ورغم كل المستجدات، بقي اليوم الذي جن فيه عناد راسخا في الأذهان رسوخ حدث فاصل. لا أحد ينسى منظره وهو يدور بأغنامه في الطرقات وبين البيوت، غير عابئ بدهشة النساء المحدقات بلحيته الشعثاء وملابسه الرثة الملطخة بالوحل وأوراق العشب. هل جن بسبب عاصفة ذلك اليوم التي لم تشهد لها القرية مثيلا، أم بسبب حبه العنيف ل"جميلة" مع انقضاء سنوات على زواجها؟ هل كان يختزن جنونه ويراكمه على مر الزمن، الزمن الذي ما عاد يفهمه؟

ابتدأ يوم جنونه عند الفجر، والفجر قنطرة عناد التي تقوده إلى الحياة اليومية المعتادة، فلا يذكر أنه ظل في فراشه حتى شروق الشمس. يفيق كل يوم، ودون كلل، ما أن تتسلل إلى عينيه خيوط الضوء الأولى. فالضوء أول المستقبلين لعناد. سواء عبر فتحات بيت الشعر قبل عشرين سنة، أو خلل الشبابيك والأبواب حينما ابتنى أخوه بيتا جديدا يناسب مستجدات القرية ومقامه فيها.

بتسلل الضوء ويفتح عينيه الحمراوين على نداء الديكة فينخزه صوت داخلي مثل مسمار، في الساعة نفسها والدقيقة عينها، ليفكر، حتى قبل أن يستعيد أحلامه، بأغنامه المنتظرة داخل

الزريبة. ما خطرت له يوما فكرة تشذيب لحيته ولا الاستحمام داخل البيت، ينسل إلى الخارج دون ضوضاء ككلب خائف، ويذهب إلى الزير المثبت جنب الباب فيغترف حفنة من المياه يرشقها على وجهه، عندئذ تدب في جسده حيوية يوم جديد تلازمه حتى رجوعه إلى البيت.

في فجره هذا، فجر جنونه الملبد بالغيوم، نسي عناد غسل وجهه واتجه مباشرة إلى المطبخ، فأحلام ليلته الفائتة كانت وكالعادة مبهمة مرعبة، اختلطت فيه أصوات دراويش وموّالات أعراس وأصوات دفوف وطبول ومزامير. أحلام بلا معنى تبددت من رأسه وخلفت غيمة من قلق. ومطبخ أخيه الكبير "ناظم" ككل مطابخ القرية يقوم في طرف البيت، حفرت وسطه حفرة عميقة تخلفت فيها بقلايا الخشب والرماد والجلّة، تحيط بالحفرة محامل من الخشب ركمت عليها خصّافات التمر وأكياس القمح وأواني الحليب وقدور الطبخ. جلس على قدر اللبن وأزاح هدمه العتيق وتناول غرفة من اللبن دلقها في إناء نحاسي مفلطح، فيما راحت العتمة تتقشع رويدا رويدا. تنسحب على مهل من حول زير الشرب، وبرميل المياه، وشجرة التوت القائمة وسط الساحة. أنهى فطوره عجلا، وألقى نظرة إلى السماء، غيوم كثيفة وهواء يشي بالمطر. الريح ساكنة والأشياء تبرز معالمها، فخطا إلى شجرة التوت وتناول عصاه الخيزران بخفة، وكان احمرار الأفق ظاهرا خلف غابات النخيل البعيدة. خطرت له فكرة غريبة راودته قبلئذ أكثر من مرة، ماذا لو يعود إلى فراشه وينام حتى الضحى مثل ناظم؟ يترك الغنم ويرمي عصا الراعي ويلتف بغطاء أحلامه التي تلقيه دوما إلى "جميلة"؟ لقد جعله ناظم يعيش على وعد الزواج منها طوال حياته لكنها تزوجت ورحلت عن القرية فهل كذب عليه؟ ما الذي تبقى له؟ عمره جاوز الأربعين وهو دون زوجة أو بيت خاص، هو وأغنامه. أكد له مرارا : إنها لك، وغدا سيكون لك بيتك الخاص وامرأتك التي تنتظر رجوعك. صحيح أنه يعد نفسه راعي القرية الوحيد، سليل أجدادها الحافظ لسر المهنة، إلا أنه وعى بمرارة بؤس زمنه، إذ أصبحت مهنة الرعي ذكرى غائمة يرويها فلاحو القرية بتندر.

خرج ناظم للوضوء فألفاه في حيرته فخاطبه بجفاء دون أن يلتفت إليه: طلعت الشمس وأنت لابث جنب الزريبة كالأخرق، ماذا تنتظر؟ إي إي، أنا ماش، رد عليه بعجلة وفتح الباب فتدفقت مخلوقاته الأليفة إلى الخارج وبالكاد كبح الألم الذي سببه ناظم.

لم تشرق الشمس هذا اليوم، وضوء النهار كاب مختنق والبروق تشعل بومضها البعيد ذرى النخيل وتسكب على طريق عناد لونا رمانيا غرابته لا تحد. كانت طريقه تتوغل بين الشوك والعاقول، تفترس خطاه ناحية به إلى أرض ليس في فضائها دوي محركات ولا روائح بنزين، أرض بكر. إلى الأمام. إلى الأمام. كان يهتف بأغنامه، سنرحل إلى أرض العشب والأرانب البرية. هناك إلى غابة " الأقرع" لاعب القمار. طارت بومة في السعف وشقشق غراب ذيله أبيض في قلب نخلة، نفثت التنانير دخانها الأزرق المشبع برائحة الخبز والنفط. دخان في الليمون والصفصاف، ورعود بعيدة تقرقع في فضاء صحراوي داكن.

استيقظت الحياة إذن وسيبدأ الشارع المؤدي إلى المدينة بضخ حافلاته، وناسه، وبضائعه، وعطن زيوته التي لا يطيقها أنف عناد. لنبتعد. لنبتعد. تلكأت أغنامه ملتقطة الثمار والعشب وتلكأ هو لشم رائحة المطر جلبتها رياح الربيع. نأت البيوت ممتزجة بالبساتين واختلط السعف مع البرتقال، الدخان بالغيوم، الخشب بالعروق، الناس بالكلاب البرية وأرانب الحقول، وأمامه امتدت الصحراء المرملة القاحلة التي يقطنها رعاة ميتون وفلاحون ولدوا كما تولد البراغيث. ليس أمامنا سوى الصحراء. لننعطف إلى الغابة.

دخل الغابة ونشر أغنامه في الحقل البري. كانت روائح البذور تدور في الهواء، والغيوم تشتعل بنار الشروق، والقرية في ركنها القصي. بيتهم صار كتلة من الطين تظلله أجنحة دخان سماوي، بيت ملعون ليس له، لا ذكريات، لا زوجة. بيت خال من الرحمة. ما الذي تفعله ايها البيت المجنون؟

والمطر وبلل التراب وصرامة الحياة البرية. بعد كل ضربة صاعقة يظن أن روحه ستخرج من جسده. وفي واحدة من تلك الصواعق المفرقعة سقط عناد في سبات عميق، سبات الدهشة والتباس الأزمان وعزلة أيامه التي عاشها منتبذا عن القرية. كم مرت على سباته من اللحظات؟ لا يدرك ذلك. فبعد يقظته تراءت له الكائنات شاذة وغريبة تعوم في عالم غير متماسك، غير محكوم بأية رابطة معقولة. عالم مبعثر كرمال الصحراء، ألوانه متداخلة مثل طعمه وتفاصيله، صوف ليلكي وثقوب سود تغطيها جلود ضئيلة متحركة، رقائق من الخضرة وثيّل في التراب. مواسير مائية تخترق الأرض كالديدان، أجراس ومزامير ودفوف ودراويش، وجوه مضيئة وذئاب تهاجم قبرة وتطير خلفها إلى السماء لتختفي في الغيوم. باص خشبي يسير على عجينة سوداء بأذرع من خشب علقت عليه أجساد بشر راحلين إلى المدينة. وفي لجة دهشته أورقت عصاه الخيزران ذكريات لها حلاوة التمور والنساء المعطرات بالقرنفل والشنان. عيناه الحمراوان رأتا كرة البحر الأزرق الملتهبة في السماء، والدودة المسافرة في طرقات التراب، والكائنات الصوفية المعلقة على أكرع أربع. كل شيء حوله مضحك، مضحك ويبعث على السخرية. كل شيء غير مفهوم ويدفع إلى الغثيان، إلى الركض بلا هدف. لا. ليس الكون هذا بكونه، كونه توارى إلى الأبد، ضربته الصاعقة، أخذته الغيوم إلى الأعلى كي يدخل تراب أرض سراب. هو الآن في عصور بعيدة لا رعوية، عصور دماره وخرابه. ضحك ضحكة عجفاء خلت من النفس الإنساني. ضحك طويلا للحد الذي تحول فيه ضحكه إلى نباح حاد ثم طفق من مكانه وراح يعدو على مهل. العصا بيده وحذاؤه عالق بإحدى قدميه، ثم تبعته أغنامه كعبيد طائعين. أي الأمكنة ستؤويه والطرق تقود دوما إلى القرية؟ إلى تلك العلب الرمادية بتبنها وحديدها، طابوقها وزيوتها، مواسيرها وأسلاكها المنيرة للعتمة. لقد رأته القرية بأطفالها ونسائها وشيوخها يعدو وأغنامه متوغلا بين البساتين، وأعمدة الكهرباء، وأشجار الصفصاف، يعدو إلى لا مكان. قال

البعض إنه جن بسبب العاصفة، وقال آخرون حبه لجميلة قاده إلى مصيره ذاك. لكن السبب الحقيقي ظل غامضا عن القرية إلى يوم موته، أي بعد خمس سنوات من جنونه.

لحية بيضاء وسط الجبال

التقيت الرجل قبل أربعين عاما، وما زلت اليوم أتذكر لحيته البيضاء بوضوح، وكان الوقت عصرا حين بدأ في ذلك اليوم البعيد يتحدث عن حياته. كلماته ظلت تتردد في ذاكرتي كل تلك السنين. أنا رجل عجوز قال لنا، لحيتي بيضاء كثلج "بيره مكرون"، لكنني قوي كبغل مهرب من مدينة "قلعة دزة". أراهن أي شاب منكم على مسابقتي في التسلق أو السير في الطرق الجبلية. وعلى الرغم من بلوغي الستين سنة إلا أنني أستطيع أن أحدثكم عما رأيته من مكاني هذا بوضوح ذاكرة عجيب. أقمت دكاني هذا مع تلك السقيفة منذ أربعين سنة، شهد جندرمة الأتراك ودرك شاهات إيران وجيوش الإنكليز مثلما شاهدت أنا عن قرب أنواع البشر المارة من الطريق الضيق القديم هذا. انظروا الآن ماذا أبيع: السجائر بأنواعها، العلكة والشوكولاتة والمرقة المعلبة والشخاط واللحم المعلب والدهن، أما العصير المعبأ في القناني فأنتم ترونه هناك وسط ماء الجدول البارد. المقاتلون والفلاحون والعابرون من العراق إلى إيران أو العكس، المهربون والجوالون، كلهم يحتاجون إلى سائل بارد وحلو بعد مشقة انحدارهم من الجبل نحو السهول والقرى.

قبل عشرين سنة لو رأيتم ما كنت أبيع لنالكم العجب، ولعل التبغ هو البضاعة الوحيدة التي لم تتغير، إلا أنه بدلا من العلب الحديثة كنت أبيعه على شكل مسحوق، فكل شخص سواء كان فلاحا أو مهربا أو مقاتلا يحمل كيسه بجيبه. وبدلا من الشوكولاتة كنت أبيع اللقم والتمر المحفوظ بالخصف والحمص والسكر، أما المرطبات فغالبيتها من المشن والكوكتيل والشابي والكوكا، وأسعارها غالية بالطبع لأن مصاريف ايصالها إلى دكاني الواقف بين الجبال كانت عالية.

أحمل كل يوم بضاعتي صباحا من قريتي على بغل عجوز مثلي، وأعود مساء إلى منزلي على البغل نفسه، فالمبيت هنا خطر، وكما تعلمون فجبالنا تحتوي على الأخيار

والأشرار، وربما تجدون شخصا يلبس شروال الثورة إلا أنه يخبئ قلب لص. مرة على سبيل المثال تركت بضائعي داخل السقيفة بعد أن أغلقت الباب وحملت المفتاح معي فقد كان ابني مريضا ولم أشأ التأخر لنقل البضاعة، وحين عدت صباحا في اليوم التالي وجدت الباب مكسورا والبضائع منهوبة، وأشك في أن بعض المهربين فتكوا بها، ومنذ تلك الحادثة لم أعد أغامر بترك أية بضاعة داخل السقيفة.

كما ترون فعملي صعب أيضا، لا يحملكم الاعتقاد بأنكم تقومون بعمل شاق أكثر مني، حملكم للبنادق لا يخولوكم التعالي على ناس من أمثالي، فنحن أبناء الأرض، نحن من نطعمكم ونبيعكم ونأويكم في ليالي الثلج العاصفة، ونحن من ننقل إليكم تحركات الذيول والجواسيس. أجل نحن. الطفل الذاهب إلى المدرسة وملاّ الجامع والمهرب والعامل المشتغل في حقول الأغا والحصادون والملايات والقطافات. في الماضي وقبل مجيئكم بقاذفاتكم وهاوناتكم وبنادقكم الرشاشة، حدث أن كنت أعرض في سقيفتي هذه بنادق البرنو ذات المدى البعيد وأم كعيب والمكنزي وبنادق الصيد ومسدسات الوبلي وأنواع الأعتدة، أعرضها مع التبغ واللبن الرائب وأرغفة الخبز والحناء والصابون والقرفة والسكر القند. لقد مرت أربعون سنة وأنا أسمع الطلقات وهي تتردد في الجبال، وأصبحت قاموسا للأحزاب، ولدت ثم تشعبت أو ماتت أو انشطرت أو اندمجت، وحفظت قائمة طويلة من الأسماء: الثورة، الكمائن، المفارز، البتالونيات والهيزات، وعندما أكون وحدي أروح مراقبا ماء الجدول الصغير سارحا عبر الأحداث التي شهدتها خلال عمري فينتابني الدوار بعض الأحيان. كل حدث له قصة، وكل جبل يذكرني بحدث ما، والتواريخ سجل لا ينقطع من الأحداث التي عشتها أو حدثني العابرون عنها سواء كانوا شهودا على الحادث أو سامعين، ليتني أعرف القراءة والكتابة كي أدون ذاكرتي.

لا يخفى عليكم أن عابر السبيل عندما يمر من هنا لا بد أن يبتاع بضاعة ما: علبة ثقاب أو سجائر أو عصيرا، وهو إذ يبتاع يأخذ حتما قسطا من الراحة على حافة الجدول. ما أن يحدق بأشجار البلوط المتسامقة على الجبل أو يرقب المياه المتحدرة من السفح أو يتأمل جلاميد الصخر في المنحدر حتى تنحل عقدة لسانه متكلما عن أي شيء. بعضهم يتكلم عن حياته، وبعضهم عن رحلته وكيف بدأها وإلى أين يقصد، وآخرون يتكلمون عن مشقة عبور نهر الزاب أو مراوغة ربايا الجيش، ومنهم من يروح يستجوبني عن عملي وكم أربح وكيف أعيش وأين، ولم اخترت هذه المهنة. في الأيام الأخيرة أصبح الشباب من أمثالكم يقصّون علي قصصا عما يجري خارج هذه القرى والجبال العالية، ثورات وبطولات وهزائم وحروب واصطراع طبقات، وكنت ألتذ لهذه الأحاديث، فهي جديدة على رأسي، حتى أنني ابتعت مذياعا أخذت أتسمع على ما يجري في أرضنا الصغيرة. إنه عالم غريب، أنت ثابت والكل حولك يتحرك ويصطرع، يدور وينفلش.

بعض الأيام ينقل لي أحد المهربين خبرا أصدقه فورا، إلا أنني أسمع الخبر معكوسا تماما في الليل عندما يرويه واحد من الفلاحين. نعم، مرة تكون الأحداث متشابهة وأخرى محرفة، وثالثة ممطوطة أو مقطوعة أو خيالية، ولم تأت أبدا متطابقة، حتى جاء اليوم الذي قلت فيه لنفسي: عندك عقل فكر به، فليس كل ما يقال صحيح، عندك عقل فلا تنس هذا، ورحت أفكر. فأصبح كل يوم يحمل لي شيئا جديدا ولذيذا.

استفتح كل صباح بأسراب الفلاحين الذاهبين إلى سفوح الجبال لزراعة التبغ والعنب واللهانة والبصل وأشجار التين، ثم المهربين الآتين من القرى الحدودية والمدن الصغيرة، وأخيرا المقاتلين الراجعين من الكمائن والمفارز إلى مواقعهم ومقراتهم. وتحولت مهنتي من وسيلة للربح والعيش إلى وسيلة للمعرفة وسماع الأخبار ومخالطة البشر. فأنا هنا أستطيع

من مرأى لحيته البيضاء، وفمه الضاحك، وصوته الساحر، المشغول بالحكي، حتى أودع هذه الحياة القصيرة.

نحو حلم الظهيرة

لم يكن طه مولعا بمعسكره قط. فقد وأد له كثيرا من الاحلام واحاله الى شاب متوحد مرتاب، فاقد الايمان بنفسه. وقناعته الدائمة انه سيسمن مثل خروف القصاب ثم بعدها... الى المسلخ. هي دائرة مفرغة أمضى قبلئذ، كثيرا من الوقت للوصول الى سر الخروج منها.

عندما اجتاز بوابته الصدئة، شعر روحه طليقة اكثر من المعتاد، وجسده يمور بخفة غير مألوفة. فأمامه يوم كامل سيقضيه في بغداد. اربع وعشرون ساعة. فكر بالخمرة، وبما يرتديه من الملابس المدنية، بالاحلام الزاهية التي سترتاده بعيدا عن اوامر الضباط والرياضة الصباحية ولهيب ساحات المعسكر. فكر بأشياء لاحصر لها، الا ان تلك الدائرة المميتة ظلت شابحة بخياله كأن ذاكرته منغلقة والى الابد، على تلك السكين العملاقة اللاصفة، التي سيجرب مضاءها ذات يوم.

في الخلاء الذي سيجتازه لوصول الشارع، تراكمت اكوام الورق وبقايا الاطعمة التي رماها جنود النظافة، وهاهو يرى ماتجمع عليها من اسراب غربان وحمام زاجل وكلاب سائبة. لا أثر لشجرة او نبتة خضراء، ليس سوى الملح يترسب على الارض وآثار الجنود، وعجب كل العجب من اختيارهم الدائم للامكنة المحيطة بالمعسكرات.

من بعيد ابصر الجنود الواقفين في الشارع يلوحون للسيارات ويتراكضون. لايستثنون اتجاها ما، سواء الذاهب الى بغداد او العائد

منها، حتى ظنهم يبغون السفر بكلا الاتجاهين، ماداما يبعدان المرء عن المعسكر.

بدا له مقرف المنظر، ساحاته مقفرة الا من بضع شجيرات اثل، وابنيته متآكلة الجدران يلتمع حديد سقوفها بأشعة تشبه النصال. نصال تتجه الى عينيه، تنغرز في الداخل، مسامير محماة تعدم الرؤية لايطيقها.

كان واقفا على اسفلت حار محاطا بجنود سمر، وجوههم صخور وعيونهم فحم.

الجنود، ثللا او فرادى، مستمرون في تلويحهم، وهو الوحيد الواقف في مكانه. بغتة داهمته موجة من الرمال والحصى، حملها اليه باص صغير فرمل على بعد امتار منه.

احتل مقعدا يجاور جنديا علت وجهه البشور، وكان الركاب صامتين. لكن لاصمت هناك، ففضاء السيارة مختنق بأغنية لام كلثوم. آهات حادة وحسرات وحشرجات، فدهش دهشة فائقة لأنشراح السائق ذي الشارب الكث، وهو ماكان يبديه عبر هز الرأس والتصفيق وتمسيد الشاربين.

كانت الحرارة سائلا زيتيا تغلغل في الاذان والعيون والافواه. احاطت مثلما الاغنية، بالأهداب والكتل المكورة وزوايا الجسد. ومثلما الاغنية ايضا، احالت الافكار الى مخلوقات متجسدة لها سمة هلامية، احالتها الى احلام يقظة.

كان الجندي جنبه واضعا بيريته في حضنه فأوحى له وجهه بأن سنه لاتؤهله لدخول الجندية. لكنه سيسمن على مهل، وافته الفكرة وهو يحدق بخليط الركاب العجيب: جنود وهنود، عرب وانباط، شيوخ ملتحون وكهول بعمائم سيخيّة ، نبتت من بينهم امرأة وطفلها كزهرتين يتيمتين وسط حقل مرمل. للطفل عينان سوداوان يلوح بهماالأنبهار قدر طه عمره سنتين لااكثر، وقدر ان بينه وبين المسلخ امدا طويلا. كانا يحتلان المقعد المقابل له، وفي الوقت الذي التقت عيناه بعيني طه دب فيه ذعر مفاجيء ولاذ الى حضن امه. فراودت طه فكرة ان الطفل اخافته بيريته المدورة، فمد يده وانتزعها واضعا اياها في حضنه مثل الجندي الصغير. ابتسم للطفل ثانية الا ان الاخير لم يشعر بالألفة رغم وداعة الابتسامة.

- الحرارة خانقة اليس كذلك؟

توجه بالسؤال الى جاره مدفوعا بفضول اكتشاف سنه الحقيقي.

- فرن.

- أأنت من المعسكر؟

- نعم، سجين فيه منذ سنة.

بدا ان الطفل كره لعبة التحديق والابتسام، ففضل الانزواء في حضن امه، بينما صمت طه وفقد الرغبة بالاستمرار في الحديث، فالاحاديث السريعة في الباصات والمقاهي ممقوتة لديه. فمع اناس لايعرفهم مقتنع هو ان الثرثرة ربما تجره الى مسارب غير مرغوب فيها. لكن الجندي هو الذي وجه الكلام هذه المرة:

- بيتنا جنب النهر. وعند وصولي، اول ماأقوم به خلع ملابسي و ... هب ... الى الماء.

- أوتعرف السباحة؟ سأله طه مذهولا لفكرته.

- كالشبوط.

- انا لااجيدها. كم من المرات وددت الغوص في النهر، لكنني اخشى الماء.

- السباحة اجمل شيء في الحياة. وصيد السمك ايضا.

- وهل تصيد السمك؟

- في البيت املك صنارة لها ثلاثة رؤوس، وكثيرا ماأطعمت اهلي وجبة من السمك. ان انهارنا تحتوي انواعا عجيبة من السمك. الشبوط والبني والقطان والجري والبز ايضا. لكن لم اوفق بصيد بز.

- تمنيت دائما لو كان بيتنا جوار نهر. فالأنهار ممتعة خاصة في الصيف.

- بكل المواسم ياصديقي. النهر عالم جميل، تجد فيه السمك والمحار والقواقع والصدف، فضلا عن الرمال الملونة. عالم عجيب.

ذاب الحديث في رخاوة الظهيرة، ولوحدها ظلت الاغنية تتماوج في الباص. نام البعض وركد البعض الاخر في مقاعدهم الساخنة. ومن بين نعاسه العميق، حملت طه خيالات جامحة وألقته جنب النهر. خلع القميص المترب والحذاء الثقيل ووقف عاريا فوق الرمال الملونة. مياه الارض كلها تجمعت حول رجليه، الكاحل انغمر بالماء، والبرودة انفجرت في شرايينه

الزنزانة

لاشيء سوى الصمت.

صمت غريب يلتصق بالممرات والاروقة والمزاغل وحارس الزنزانة.

الحارس مدجج بسلاحه يحرس الاجساد خلف الجدران، يحصي عليها انفاسها بلذة.

ثقوب نافذة تطل على فسحة واسعة يمكن رؤية حصى ورمال وحشائش يابسة من خلالها، وتكشف للسجناء وجود سور طويل غطته الاسلاك الشائكة.

يحدث ان تقرقع المفاتيح وتنتشر الضجة في الممرات العفنة والاروقة، فيندفع الباب منفتحا على روائح طعام، دخان سجائر، وجوه خائفة شظتها القضبان الى احلام وتجاعيد ونظرات انتقام. وعلى خزانة حديدية ذات لون رمادي يركن ويستقر، فتتوهج كلمة سجن مكتوبة على الجدار المقابل كأنها العقيق. وكلمة سجن كما الفت في الزنزانة تعني وبأبسط مدلولاتها، ان يكون المرء اصفر اللون، محدود الرغبات، مطيعا للأوامر، وقد خطت بالسواد، حبر او شحار، جوار النافذة ذات الثقوب، لتثبت حضورها ليلا ونهارا، وتمسح الامال بقماشة خشنة من اليأس.

كانت ثقوب النافذة هي البوابة الوحيدة التي تفسح المجال لأعمدة الضوءالنزرة كي تتسرب الى الداخل لتشق الغبار وتخلخل العفن وتنير للعيون الهائمة في الظلام الزنزاني.

عندما تتشابه الايام والساعات والثواني على النفوس، تضيق الجدران وتلتم الى بعضها، ويصبح الباب الاصم الموصد حالة مستديمة، يرتقي احدهم افريز النافذة وينظر الى الخارج عبر الثقوب، فيشاهد بشيء من الدهشة: مصنعا للاقراح اليومية فارغا مهجورا، حلفاء متشبثة بحافة السياج مدفوعة بهاجس الهرب نحو الاراضي البرية المزروعة بالطيور، اشجارا يانعة الخضرة لكنها خالية من الثمار تطوف حولها غربان مبقعة، مدينة بعيدة اخفاها الضباب الا مادكن من عماراتها وحدائقها وشوارعها. خارج الزنزانة حياة غير مفهومة وفي ذات صباح نما وتفتح كالزهرة، صاح احد السجناء بينما كان يراقب ذلك المشهد بصوت عميق ايقظ النيام "ماأجمل الدنيا" ثم تراجع الى الارض والتقط عود ثقاب متفحم وخط صوته على الجدار اسفل كلمة سجن. لكن خطى الحارس ذلك النهار، ظلت معلقة في الاذان كعذاب ابدي. قال له السجين وقت الخروج الى المراحيض "هل انت آلة ايها المسكين؟ فصمت الحارس غيظا وبادره بعد دقائق خمس قائلا "لاتتدخل بما لايخصك والا ارسلتك الى زنزانة انفرادية" واغلق الباب بعنف.

على الجانب الايسر من النافذة، ومقابل ماأجمل الدنيا، بسقت نخلة طويلة سعفها متهدل الحواف محفورة بالاظافر، شبيهة بنخيل الانهار والسهول والاهوار، متفردة تتيه في صحراء البياض الملطخ بالفحم، اضفت عليها يد الرسام سحرية الحلم، وشفافية الرؤيا، وطفو الذكريات الحية على سطح الذهن. رآها في منامه وليومين متتاليين، بالتفاصيل نفسها، التاج

الاخضر المليء بالزنابير وعرائس النخيل، الكرب القهوائي، الثمار المصنوعة من العسل وعرق البشر، فما كان منه الا ان يمد اظافره البارزة كالأزميل. راح يحفر ويشكل، ينحت في الصلادة عروقا غليظة وجذعا هائما في الفضاء وسعفا مسرحا منسق الخوص كشعر امرأة. وما لبثت ان انبثقت نخلته الساحرة، نخلة الحلم البعيد غير المأسور بالقضبان والاسلاك الشائكة، متطاولة على جدار الزنزانة وسط بقع من السواد والدم. اي التواريخ يؤشر ذلك؟ ٤/٥/١٩٨٠، معلق جوار الباب، ٤/٨/١٩٨٢، كتب بالأحمر وكاد ان ينمحي، ١٥/١/١٩٨١، ليس فيه مايدل على حذر في الكتابة. تواريخ منتشرة على الواجهات الجدارية، وهي من الكثرة، بحيث انها لم تعد تنبيء الا عن نفسها، خلافا لما اريد لها ان تكون.

في البدء كانت الجدران الناصعة، الجدران النظيفة، وجه الصبيّة، البراءة الاولى، حتى دخل السجين الاول. الكائن الشاذ، الولد الجامح، الذي احس، وبعد عذاب مضجر رتيب مل سببه يوم ثقيل، انه بحاجة الى افراغ دواخله المدوّمة، الى خدش تلك البراءة الكاذبة، جرح الرخاوة الزنزانية، فتطلع الى الجدران فألفاها مغرية، اغراء بياضها لايقاوم. ود لو يسكب عليها بعضا من سأمه وعذابه ووحشته. رسم امرأة مشتهاة شعرها امواج وعيناها زمردتان. وجهها رغيف وابتسامتها فضة، وراح يمضي نهاره بالتطلع اليها. وفي صباح ما، الفى الشفتين الوحشيتين تبتسمان له بمكر واغراء. وبعد ساعة من الظهر، واثناء القيلولة، توهم

انها تدعوه الى جانبها، فقفز من سريره غير مصدق، ووقف مدهوشا امام الحقيقة العارية، فالحارس خلف الباب، وهو امام لوحة رسمتها اظافره.

ع. ر. ا، كلمة نسي كاتبها ان يكملها ولا احد يعرف السبب. ماعساه كان يفكر في تلك اللحظة، وما الشاغل الذي منعه من اتمامها، صفعة الحارس ام خروجه من السجن ام خروجه من الحياة التي احبها وعشقها مثل عشقه للفرح والطيور والتحديق بعيون النساء ومعرفة الاسرار والاستلقاء تحت مظلة من الشجر. لااحد يعرف الا الجدران، التي ستحتفظ بالحروف الغريبة المبهمة الى ان تكمل الكلمة او تهدم الزنزانة او يعود الكاتب من رحلته السرية فيلغي الالتباس ذاك. ومما يلفت النظر الى تلك الأحرف ويزيد غموضها، انتشار خسفات احدثتها ضربات قوية على الملاط، جنب تلك الحروف. الآثار عناقيد والخسفات تآليل. ولقرب العناقيد المبعثرة من قلب مليء بالدمامل رسم بقلم الكرافيت، صار بالأمكان تخيل لوحة غير مفهومة، لاحدّ لشذوذها، محمد خوشنا أمين، ابن الجبل، ذو الأبتسامة البلّوطية، لم يمنعه احد من احتزاز وريده في ليلة عاصفة. آثار دمه لطخت الجدران بالأحمر وشقّت عن انكسارات اجيال مضت بلا رجعة. اي حلم تسامى فيه محمد خوشناو في تلك اللحظة من حياته الفانية؟ الجدران وحدها تعرف، فتحت جسده المكوم على البلاط، تخثرت ذات يوم بقعة واسعة من الدم عكست الجدران حمرتها، والقت الحارس القروي الذي لم يألف مشاهد حمراء من قبل، في بحر من الجنون تحول فيه الى وطواط لايفارق بيته.

بعد الحادثة، دخل الزنزانة ثلاثة سجناء، لاحظوا فور دخولهم، خيوط الدماء وبلاط الارضية الباعث لرائحة نفاذه، فاستنتج احدهم حقيقة ماجرى. حمل عود الثقاب المتفحم وكتب بأسف: محمد خوشنا امين، لن ننساك. وهاهو الجنرال المقابل لها بالضبط، يرمقها بعينين جيلاتينيتين وبفم مفتوح. فمه هوة، فراغ، ثقب ماص، يهم بالعواء لكن لايخرج من شاربيه اي صوت. وتداخلت صورة الجنرال مع خطوط صغيرة حمراء وبصاق جاف وذباب مدعوك فوق نسيج عنكبوتي املس. وعدا صورة الجنرال المشوه، رب المدن، وحاكم الغيوم، ومجري الحياة كيفما يريد، تكون لوحة الحيوان الاسطوري ببطنه الكيسية اكثر مايلفت الباصر آن دخول الباب. فهو ذو وجه بشري وارجل مخلبية بانت تحته آثار خطاه الزاحفة نحو الباب لأستقبال القادمين الجدد. كان ينظر اليهم نظرة اختيال ونزق، ذيله الحصاني كاد ان يضرب المرأة الجميلة بعنف ليزيلها من الجدار. الا ان المدقق بحركة الذيل يستنتج ان غرضه واضح، مسح الخطوط والشعارات والحكم والاحلام المجسدة، مسحها بنهاية ذيله الشبيهة بالفرشاة. هُمْ. كتبت تحت ذلك المسخ بأتم الأناقة.

ومثل اية زنزانة اخرى، كانت قطع الملاط تعتم وتتهاوى في عيون السجناء ما ان يطفأ النور، لكن العيون، وخلافا لرغبة الحرس والجدران والليل، سرعان ماترحل الى الاعلى، نحو مغامرتها اليومية المعتادة. لايبقى سوى خطوات الحارس وتلك النجوم البعيدة المدلاة بخيوط من الحرير على سطح الزنزانة وقاطنيها. من بين تلك النجوم نجمة فريدة تمر

شهوات

برزخ الخطيئة:

يتوجس بعينيه السواد المبعثر على الحوش ومافيه من نيام واغطية وحيوانات قميئة وابواب ونوافذ، فلا يستوقف خياله شيء من الموجودات المطلية بالسواد، انما يستثيره ذلك الجسد فقط، يجذب كمغناطيس حديد خطواته. الحيطان حوله دائرية، والسماء جدار آخر تنزرع فيه نجوم بعيدة واضواء متغامزة متألقة تسقطه في عزلة روحه وآلامه الليلية المسافرة فيه، كما لو انها افعى غير مرئية، تدب وتتوغل الى مكامن التفكير ومخابيء اللذة وكهوف المغامرة. الليل دليل يقوده الى الجسد، والجسد ملتف على نفسه بطمأنينة الجدران والابواب المقفلة والمحرمات والقرابات، موغل في شخيره وزفيره، موغل في تنفسه المضطرب، بينما تشق الاقدام المتوجسة، نسمات الصيف الراكدة داخل الحوش، المختلطة بأنفاس النائمين من اخوة واخوات وعمات وخالات وقطط مختبئة وراء اللحف وأواني البيت. الهواء بطيء الحركة والناموسيات درع للاجساد تقيها لسع البعوض، وهو منتصب مثل مارد من خطايا، قرب الجسد.

يصطدم بخشبة السرير، عائق آخر امام لذاته، فيتراجع الى الخلف ويلطى تحت طية غليظة من العتمة، هل فز احد، أحس به راصد، بحلقت فيه انثى السرير من خلال ناموسيتها؟ ورغم الاسئلة التي تحاوره، يسأله

الهواء وتظله الاشياء، فلا السماء رأت و النيام لم يوقظوا، وهاهو الخيشوم يشخر ويزفر من جديد، هاهي الطمأنينة تصطفق في كرياته الحمراء والبيضاء، لكنه يستشعر بعين ترصده، عين نافذة في جدار الحوش تنفتح الى الخارج. من تلك العين ممكن ان يطل محدق او رقيب، فالمتربصون كثر والعسس يجوبون الدروب كالبراغيث الظامئة، ولايرغب انفضاح خروقات افكاره لقوانين منحدرة في لحم الزمن كالجذور. انه خوف الانكشاف، يباغته، يستفزه، يجمد قوالب شهوته، يؤطر صورة مغامرته، فالليل يشي بالحذر مثلما يشي بالامان. وبين الحذر والامان سبيل رفيع مثل شعرة، يمشي فيه حول النافذة، فيواجهه الجدار الابيض المنعكس على بياضه بقايا مجسات ضوئية اهملتها النجوم. هي ترقبه حتما، تظنه مخلوقا آخر لايختلف عن البقر والضفادع واجراف النهر واشباح الفضاءات الدخانية، لكنه لايرتدع من لجمة ولايرعوي من شرعة. لايمنع هجومه على حرارة اللحم كل نجوم السماء وكل دبيب الاقدام المترصدة عبر النوافذ. لاتصده عن ضوع الاستمناءات المحرّمة حتى حركة النيام غير المقصودة، ولايثنيه انفتاح الدرفات كلها عن مراقبة افعاه الملتوية في اعضائه، المستطيلة، المتناسخة، الهيمانة الى الرحم الدافيء الذي جاء منه. ومابين طي الدرفتين واخشاب السرير حيث يرقد الجسد الهائم بين آهاته وعرقه الانثوي، يكبر تمرده، يكبر ويتعملق عشقا في الخطيئة، فسحرها قاتل وبريقها معش وفراقها توق تلبس روحه منذ ازمان طفولته وبزوغات رجولته. مزيحا ذبالات الخوف، متهورا بعشقه الصارم لارتكاب المعاصي،

مغمضا عينيه عن السماء، يشرع سلامياته للجس والتحسس، فتستطيل اليد مثل عسلوج طري نحو الملاءة الواقية. تكويرات وانحناءات، بقع مرصعة بالزغب، بياض يقود الى الرحم. سيعبر دون تردد الى مناطق ماوراء النسيج، وعبر براق اسطوري، يغذ السير الى اراضي الجفاف واللعنات البشرية، الى اراضي القرابات والحليب والدم. ماهي الا لمحة ضوئية اشبه برعشة استمناء، ويقطع بساطور جريء، عوائق العلن والكشف والترصد، يلعق بلسان ناري جدران العشيرة والقبيلة والعائلة كي يذوبها، يلاشيها، يحولها الى ضباب. ينسحب ويمتد، يتقلص وينبسط، يقدم ويحجم، في معركة تدور بين اللذة والعقل والضمير، حرب شرسة في الشرايين التي تمترست افعاه فيها فلا هو يقلصها ولا هي تفجره. وفي كل امتداد جريء لليد، يهيم في سماوات ويسبح بين شموس، يختفي عن باصريه هذا الوجود فيولد وجود ثان، حيث الليل شرنقة للأرواح الشريرة والنجوم اموات قضوا منذ قرون والجدران الارضية قبضات عملاقة من خطوط ومنحنيات. وفي كل انقباض يحس بتحوله الى فقاعة اوهام يرى عبر عدساتها المائية كتب الاديان وخناجر الاجداد وتعاليم العائلة وتنور الخطيئة الفاغر فمه القائد الى مملكة الوضاعة والحطة. تأرجح ورقص، توتر وتجاذب، تقلص وانبساط، وكأن اللعبة لعبة خيال واقنعة وارواح شيطانية لايلعبها الا امثاله من البشر الابناء على مسرح الحوش وسط ظلام الجدران. ولاتلبث السنة الصراع ان تنال الجسد، تخرب هدوءه وتقوض طمأنينته فيفر مثل قبرة ويفلت آهة احتجاج طويلة

على جرأة جارحة للحم الشرائع واتساق الوجود، يسفح بعدها كلمات خرساء غير مفهومة، ثم يندرج في الملاءة الشبحية الراشفة لخمرة النوم الثقيل. لاجدوى، يرقب بعد همومه في سريره البعيد، تلك الكتلة البيضاء الدافئة، فيتمنى لو يعاود الكرة، يذوق تفاح الخطيئة البكر، يطلق جيوش انامله في الحقول المحرمة. يتمنى ويسرقه النعاس، تناديه النجوم المعلقة في الجدار الوهمي ويخترقه نداء غريب: ليس الليلة، ليس الليلة، فالغد مثير للفضول دوما.

بوزخ الليل:

يحكمه عالم اللذة الداخلي والشهوات الارضية التي يغور بها الجسد الفتي، فيندفع خارج البيت نحو الظلام، فالظلام ستر للمحرمات والفضائح، جدران للاسرار. ينجذب الى بقع خيالاته الداكنة حيث تتداخل الموجودات فلا يعود يميز بين جسد بشري وآخر، والحيوانات، حتى الحيوانات تتمظهر باجساد بشرية فيها حرارة الدم وتنطلق منها مغناطيسية جاذبة لاعمق رغباته غورا. في الظلمة تنبثق حاسة قلبه، تتصاعد متجهة الى اكثر الاماكن رطوبة وغموضا واثارة، فيندفع مثل موجة عارمة نحو النخيل والبساتين المهجورة. يمشي مبتعدا عن القوانين الاسرية والاعراف المترسبة فوقه كقشور شجرة عملاقة، فتتناوله الدروب الليلية الجافة او الرطبة، الدروب المؤدية الى النهر او الى الخلاء او الى النخيل. وحده طريق النخيل الذي يجر هاجسه الداخلي وشهوته المتمددة في الشرايين، فيطرق الليل بأقدامه لايستجيب لرعشة افعى ولايلحظ

دبيب الحيوانات الظلامية القميئة، اذ ان امامه في الغابة حيوانه الضخم، موطيء شهوته ونقطة منتهاه. حوله وكما يحدث دائما، حواجز كثيرة، فمن مارة في طريقهم الى غرف النوم، ومن اضواء سيارات تمرق كالحباحب في هلام القير، الى عوائق اخرى يتخطاها بقفزات تتخذ من الجذوع الغليظة ساترا وحماية عن الاعين. وهو في احتمائه، يتفرسه الدعلج المختبيء بين ابره الرفيعة وبقايا الليف وقصاصات التبن، والجرذ الهائم على وجهه مفتشا عن طعام حي متحرك، وبوم السعف الراقد بين الخوص والكرب والعراجين العتيقة. كل الاحياء تتفرسه، تتفرس هذا الوافد تحت جنح الليل. ويتفرس هو ايضا، حذرا مما يحيطه من اشياء ومخلوقات واندفاعات مفاجئة، لكنه يواصل خطاه الى موضع بعينه، يتلمس اليه طريقه رغم نداءات رأسه المتواصلة الداعية الى الكف والرجوع. فالرائحة يعرفها والمكان يدريه، وليس امامه الا خيط العفونة المقترب، القائد نحو الفريسة التي ترتدي جسد انثى وتتغنج له في الليل البهيم. هاهو الحي موطيء اللذة. هاهو المخدر تفضحه رموزه. بقايا فسيخ، تبن مبعثر، اصوات عجماء، شرخ حار. المخلوقات من طين ولافرق بين جسد وآخر. يختض فخذاه وتنتأ افعاه، والايادي الداخلية تدفعه بعناد شرس الى الفريسة، والفريسة انثى بجلد آخر. بلمحة كأنها ومضة ضوء، تبتلعه الرطوبة الدافئة وتتمثله الحرارة الحية، فيندرج في عداد الاحياء ذوي الغرائز ما ان تبتديء ذكورته شغلها.

بيده المتصلبة على العضلات يفض احجية الفوارق بين الاصناف،

بالاضطجاع والتمدد والانفلات. جزر الطين جوف بشري له سحره، جسد مومياء اليه بعينين دعجاوين، بجيد ومعصم، بشفة ووجه. الاشياء تناديه بالسنة من شهوة، تنزع ملابسه، تقشره مثل حبة برتقال، تدغدغ اعضاءه الشابة المختزنة لتيار حياة جارف. يكوم قشوره القماشية على الرمل، واثناء صعوده الجرف، تلاحقه القواقع متشبثة برجليه. ينظر ثانية الى الطرق النازلة نحو النهر، الى السماء الشديدة الزرقة، الى الشجر المظل لبيوت الفلاحين وابقارهم، ازواجهم وبناتهم الملتفات بالبراقع، المتواريات خلف الجدران والكوى الضيقة. لا احد، لااحد الأه ومملكة الاصداف والقواقع والارحام الشبقة. ومابين رؤية الخلاء الجهوي ولمسة الموجات الحانية لزغب قدميه، تتجسد له الكتلة الطينية اعضاء تنظر وتغمز، فيرتشف بعينيه المياه الخابطة الجارية من مكانات مجهولة، والمسافرة الى اصقاع بعيدة وجزر واهوار مكتظة بالبط والنساء والحيوانات المائية. يفرش جسده على الاعضاء، يفض عريها، يسافر بين الديدان البيضاء والرطوبة النهرية. في الامتداد الافقي مسطح مائي اصفر، وفي حافته البعيدة المقابلة، رجل متسكع واقف يتطلع فيه بصمت وثبات. لايرى عينيه ولايميز عمره، رقيب يقذفه النهر من اعماقه السحرية، او جدّ من اجداده يمارس عليه سطوته. ارتشف النهر، طف بقدميك العظميتين خارج الرؤية، كل اعشاب الرمال واشرب ماءها الملوث بالدود. يخاطبه بإيماءات ذهنية اثناء انغلاله بدفء الطين. يغمض عينيه ويدخل ملكوت روحه، يتيه في غابات من الزغب الجسدي، فيرتفع مع تلة وينخفض في واد،

يتلوى وسط المتاهات العجيبة مثل افعى جائعة. لاسماء ثمة ولاافق، غابات من عري نهري ووحدة مطوقة بالهواء والثعالب البرية والاجمات التي من عاقول وطرفاء وشوك. يحس جسده يختض واوردته تنفتح على رطوبة الطين بشبق، فينغل اكثر، ويجاور بانغلاله دعسوقات شعرية وسيقان مجهرية واعضاء انثوية تقطع عليه طريق العودة. لاتخاذل، فالهوة تنفغر، والفسحة تتسع، وهاهو الطين يمتصه، يغمز له بألفة، فيرتج جسده وتكبر الفوهة وينحدر في ظلماتها. ينمحق من خياله، جده الواقف على الجهة الثانية بعظامه الرميم، ومراثي النساء، وفرحة الصبيان، وصراخ المواليد الجدد. يغيب المحشم والبطن وتتسع اللذة، فيتبعهما الظهر والسيقان فيحلق بين الغيوم باجنحة من حرير وعيون من قمح. ثم يتلاشى الرأس، باعتباره آخر معلم للجسد، وبذلك تكتمل دورة الشهوات الارضية، وتندمل الجراح الطينية. انها الام تستعيد وليدها العاق غير السوي، فلا يبقى ثمة على الشاطيء الخالي الا رفات الجسد والسماء الزرقاء المكورة والرمال البيضاء ذات الاصداف الميتة، ملقاة عليها ملابس صيفية عتيقة.

السماء مليئة بالحب

السطح: مستطيل مفتوح على السنونو والغبار الذهبي، لسان املس من البلاط يندلق بأسترخاء خارج باب الغرفة، عين كبيرة ترصد مشهدا شاسعا لايؤطّر: احياء المدينة، طرقاتها، ناسها، جبالها الراسيات، آفاقها المغرّبة والمشرّقة.

غرفة السطح: سرير من خشب رخيص اغطيته مدعوكة يستر عريها شرشف قطيفة احمر، ملابس متنوعة علقت في مسامير مغروزة في الحائط، شال صوفي لسيوف الشتاء، جاكيتات لدرء هبوب الرياح، كنزات صوفية للسفرات الجماعية التي تنظمها الجامعة، اريكة، ماعون مليء بالموز والبرتقال اعدّه الشاب للضيفة، غبار ذهبي رشّه الصيف على محتوياتها وجدرانها. ارضية الغرفة ذات بلاط قديم لكنه صقيل لم تجف رطوبته بعد. يحاول الشاب بدأب، ازالة مياهها بقطعة من قماش، ينقعها كل مرة بالبريكات المتبقية على البلاط، ويخرج من الباب الى السطح، ثم ينعطف يسارا كي يلج المطبخ الصغير المحشور بين سياج السطح وجدار الغرفة. يعصر القماشة في الحوض ثم ينفضها خارج المطبخ.

في كل وقفة له فوق اللسان الاملس، تلوح له الغوطة من بعيد ببساتينها المتشحة بغلالة شفيفة من دخان دمشق واشعة شمسها الاصيلية، وما ان يرتشف الحرّ مياه القماش، حتى يفارق السطح ويدخل الغرفة، ثم يبدأ بأزالة غبار الصيف عن اطر النافذة وخشب المكتبة

الصغيرة والمرآة الطويلة المثبتة جنب الباب.

سيجلو الغرفة للزائرة، سيجلو البلاط، سيجلو السطح، سيجلو كل شيء.

يلقي على ساعته نظرة عجلى، يتطلع في المرآة، يستل سيجارة من علبته المرمية على الطاولة الصغيرة.

انها المرة الاولى التي تزوره فيها جميلة، رغم معرفته لها منذ بضع سنوات. وهو اذ يحدق الى جبال قاسيون البعيدة، يفكر انه كان ينبغي عليه التقرب منها قبل مدة طويلة. فبعد سنة واحدة فقط من دخوله الجامعة، لم يبق وجه من وجوه العراقيين الا حفظ ملامحه، اما بماذا يفكرون، وما هي اهواؤهم السياسية وكيف وصلوا الى الشام، فأمور اصبحت مألوفة لديه الفة شوارع دمشق وجوامعها وضجيج حياتها اليومية. عرف الكل، عدا تلك الفتاة السمراء النحيفة، ذات العينين السوداوين والنظرات المريبة القلقة، الفتاة السمراء المسماة جميلة. فهي الوحيدة التي لم يتعرف عليها الا بعد مرور سنتين على وجوده في الجامعة. عرفها في الحفلة التي دعاه اليها صديقه السوري، الدارس معه في القسم نفسه. كان بيته يقع في سفح جبل قاسيون، يشرف على دمشق من عل، حتى ان الواقف في نوافذه، يستطيع رؤية جبل الشيخ والطرق الهاربة خارج الشام، نحوبيروت وحمص والسويداء. في ذلك البيت، كان لقاؤه الاول مع جميلة. فعندما اكتمل المدعوون، بدأ صديقه اسامة بتقديم اعضاء الشلة بعضهم لبعض، وهم جميعا، طلبة في جامعة دمشق. ظن

وقتها انه العراقي الوحيد بينهم، فهو متأكد انه لايخطيء في تمييز الوجوه. وكم كانت دهشته عظيمة حين قال له اسامة، وهو يشير الى تلك الفتاة الناحلة الخجولة المنكمشة بين جلدها، مثل عصفورة مبتلة، جميلة، عراقية من الحلة. يتذكر المشهد بصفاء كما لو كان يعيشه اللحظة. ولن ينسى الارتباك الذي حصل بينهما حين ادركا انهما العراقيان الوحيدان بين عشرة من السوريين واثنين من الفلسطينيين يسكنان في حي اليرموك، وعن طريقهما استطاع الحصول على غرفته المتفردة على السطح، المشرفة على المدينة، المستقبلة لغبار الشوارع وضوضاء السيارات التي لاتنقطع حتى ساعة متأخرة من الليل. هاهي قادمة، ينبهه قرع الجرس، وقد وفت بموعدها. الاشياء كلها مرتبة في الغرفة، مجلوّة وضاحكة، من افرشة السرير الى اصيص الزهور المتفتح في فضاء النافذة المشرعة على الافق، الى البلاط المشبع برائحة الشامبو. كل شيء لامع ونظيف لأستقبالها. ويقرع الجرس ثانية، فيطفيء سيجارته وينحدر الى الاسفل لفتح الباب. يسفر الباب عن ابتسامتها الحريرية المنكمشة بين شفتين مطليتين بالاحمر، فيدعوها الى الدخول، وتدخل مع ابنتها الصغيرة التي وعدته بجلبها. عراقية اخرى لايعرفها لحد الان، مع انها تتنفس هواء الشام وتغازل الفضاءات بعينيها الصفراوين منذ اربع سنوات. احلام، هذا هو اسمها. ويقودها مع احلامها الى الاعلى، عبر عتمة الدرج. تطل المرأة الفلسطينية القاطنة في الطابق الارضي من فرجة بابهم. ترمق الصاعدين بعينين فضوليتين لاترتاحان الا حين تنبئها اذناها بوجود طفلة، يأتي صوتها من

السياج المطل على الغوطة، ثم يجلب الثالث لاحلام، الا انها تفضل البقاء واقفة.

انني احسدك على المكان، فهو مبهج للروح ،كيف حصلت عليه؟ تسأله وهي تغادر كرسيها لتتملى في سعة الغرفة وتصميمها. تطل بعدها على المطبخ المكتظ بأوعية الطعام وكؤوس الشاي وطباخ الغاز. هل تتذكرين اسامة الشاب السوري الذي دعانا عنده يوم تعارفنا؟ اجل ماهي اخباره؟ انه الان في لبنان، التحق باحدى الفصائل الفلسطينية، فلأسامة صديق فلسطيني اسمه محمد، حضر معنا الحفلة وحدثته عن صعوبة العثور علي سكن، فقال سأكلم اقاربي بالموضوع، واقاربه هم سكان الطابق الاسفل. اجروني الغرفة مع مطبخها وسطحها وفضائها المفتوح على الدنيا بثمنمائة ليرة. سعر مناسب، اليس كذلك؟ اكثر من مناسب، فانا اعيش في ركن الدين في غرفة اصغر من هذه، واشترك بالمطبخ مع مستأجرين آخرين ولاارى الشمس الا في بداية الصيف، وادفع خمسمائة ليرة. انك محظوظ حقا. تشعر احلام بقربها من السماء فتتركهما لحديثهما وتبتعد الى الطرف القصي من السطح. تتراءى لها المخلوقات البشرية صغيرة مثل حبات الذرة، اما السيارات فهي فقاعات هوائية مندفعة افقياً الى الغابات البعيدة والصحارى، الى بيوت الوحش والطير والعالم الغامض. يأتي بعدها، ربما، تلك المدينة التي حدثتها امها عنها. الجدة ذات الشعر القطني، النخيل العالي الذي لم تره لحد اليوم مع انها تشاهد الكثير منه بأحلامها، النهر بأصدافه الملونة ورماله الناعمة ومياهه

الخابطة. السيارات تسافر الى هناك حتما، وستسافر هي ايضا عندما تكبر. ستترك وامها المدينة وغرفتهم الضيقة والعابها الغبية وابيها السوري، فهو لايهتم بها، وستجد ابا آخر في مدينتها.

كوني حذرة ياأحلام، لاتحاولي صعود السياج، تنبهها امها فترد بصوت رفيع به لثغة محببة، نعم ماما، لن اتسلق السياج، انه خطر.

لم تكن الامور سهلة اطلاقا، تكمل جميلة حديثها وهي تدخن سيجارتها بلذة وتتيه في المديات البعيدة الغارقة في السراب الشمسي المفتتن بانمحاقه خلف خط الافق. فمجيء الطفلة عقد حياتي بشكل لاتتصوره. يتوجب علي الذهاب صباحا الى الكلية، وترك احلام برعاية جارتنا السورية حتى عودتي. وانت تدرك ان الفكر المشغول بهمومه لايمكنه متابعة دراسة معقدة كالهندسة. موازين، مقاييس، مواصفات، كتب بالانكليزي، مصادر بالفرنسي، محاضرات. وانا منشطرة بين واجبي كأم، ومهماتي كطالبة ينبغي لها قضاء الليل بالمذاكرة. وكانت النتيجة تركي الجامعة.

كان بيان مهذبا جدا كما رأيته اثناء الدراسة ولايبدو قاسيا الى هذه الدرجة. يقول الشاب وهو يشعل لها سيجارة ثانية ويقدم لها كأس الشاي على الطاولة الصغيرة التي يقتسمانها. كنت اراكما في اروقة الجامعة وفي محياكما سعادة واضحة غبطتكما عليها ذات يوم. يقول ذلك وتطوف بوجهه ابتسامة ماكرة ويحدق بعينيها مباشرة، فتشيح رأسها بخجل خفيف يبرز واضحا في نظراتها واندفاع الدم الى بشرتها السمراء

النحيلة. بدأت علاقتنا بمشاريع كثيرة ووعود ومخططات، وانت تدرك وضع فتاة مثلي، مشردة خارج بلدها. اقربائي معدومون ومعارفي نادرون. قال اننا سنتزوج ونستقر في طرطوس قريبا من العائلة، نستأجر بيتا صغيرا ونجد وظيفة ثم نبني حياتنا في تلك البقعة الساحلية. واذا ماتغيرت الظروف في بلدك، فهو ليس ببعيد البتة. يمكننا زيارته كل صيف، ومتى رغبت بذلك. وهذا كما تدرك، اغراء ليس من السهل مقاومته. على اية حال، لاارغب بأعادة القصة من البداية، لكن وبعد سنة واحدة، انقلب كل شيء الى نقيضه. تداعت الاحلام واحترقت شجرة الحب. تغير بيان بشكل ملحوظ وصار يرغب الخلاص مني بأي ثمن كان. وفي اليوم الذي طلقني فيه قال انه لن يطالبني بالطفلة، يمنحني اياها دون مقابل. هو على مايبدو، يريد قطع الخيوط كلها معي. شيء غريب جدا، يقول الشاب، فلاتصور يوما ان بأمكان بيان القيام بأمر كهذا. مشاريعه الثورية وافكاره ووجهات نظره على الضد تماما مما قام به. صحيح ان الانسان يختلف بين ليلة واخرى، والحياة تغير جلدها مثل افعى. بدأ يعيش حالة من اليأس، واخذ يردد دوما، لاشيء يحدث، ركود في ركود وفقد الايمان بأفكاره السابقة. وبعد حصوله على الوظيفة، ترسخت قناعاته الجديدة اكثر فأكثر. صارت الحياة تعني له جمع النقود والمركز العالي وتدبير الشؤون الشخصية. اظن انه اعتبرني جزءاً من ماضٍ ينبغي الخلاص منه. كانت السنة الاولى اجمل سنوات ودنا، لكن المؤسف ان السعادة تخلف طعمها في القلوب على هيئة ذكريات فقط. ماما احلام،

تعالي الى هنا، لاتحاولي النظر الى الاسفل، ستدوخين. نعم ماما، هذه هي المرة الاخيرة. وتظل احلام برأسها الى الشوارع المتقاطعة، تجذبها حركة الناس الكثيفة في وقت الغروب هذا. تنتهي الى خياشيمها الرخوة رائحة المطاعم والفواكه المكتظة في السلال، وفي لحظة عجيبة صارت الشوارع تشتعل بالمصابيح الملونة. احمر، اصباغ امها. اصفر لون البرتقال. ابيض شموس ليلية مبعثرة. الاطلالة الاخيرة في عالم المدينة الغريب. ترى كيف تبدو مدينتها التي حكت امها عنها هذه الدقيقة؟ لابد انها حزينة. فالمدن التي تعيش الحرب، كما اخبرتها سوداء مثل الفحم. نساؤها يرتدين السواد، وفتياتها لايضعن طلاء على وجوههن. نخيلها محروق وسياراتها كتل قطران متحركة. كيف تغرب الشمس على مدينتها هذا اليوم؟

ينهض الشاب من كرسيه ويدخل الغرفة ويحضر صحن الفواكه، يضعه على الطاولة فتحتج جميلة قائلة: اننا نعذبك فلم كل هذا الاهتمام؟ عذابكم راحة، يمازحها الشاب فيبتسمان سوية. احلام، ينادي الشاب على الطفلة المسحورة بحكايات امها عن مدينتها، المحدقة في ثنايا ذكرياتها الغضة، السابحة بين الالوان والفقاعات المتحركة افقيا وروائح الشوارع السفلية الضاجة، هل تأكلين البرتقال ام الموز؟ افضل الموز. فيناولها اصبعا من الموز ويعود الى كرسيه ليستعيد مع جميلة ذكريات زمن عاشاه معا، ايام دراستهما الجامعية. هل تلتقي بالشلة دائما كما في السابق؟ نعم، لكن في اوقات متباعدة، فاسامة يزورني كلما

رجع من لبنان، والاصدقاء السابقون ابتلعتهم سبل الحياة، اضافة الى انني لم اعد ملك نفسي. فأنا في السنة الاخيرة من الكلية كما تعرفين، وشغلي الليلي يرهقني جدا. ابدأ العمل في الثامنة مساء في مستشفى المواساة، وامكث فيه حتى الصباح. اقضي الليل في بدالة التلفون اتلقى النداءات التي لاتنقطع: حادثة على طريق بيروت، ارسلوا لنا سيارة اسعاف، رجل اصيب بالسكتة القلبية، عاجلونا بالطبيب الخفر، معركة بالسكاكين في احدى البارات، اسعفونا. وهكذا تمر الليالي. اصبحت احلامي تدور حول الجثث والجرحى والكوارث، وكأن مارأيته وشاهدته من كوارث في حياتي لايكفي. والساعات القليلة المتبقية بين العمل والكلية اقضيها في النوم والمذاكرة ومتابعة مايدور في العالم. كل المشاريع اصبحت لامستساغة ولامضمونة، والاحداث تجري مثل فرس هوجاء، دون ان يمكن للانسان اللحاق بها، فضلا عن امساكها. اتذكر بجلاء ايام وصولنا الاولى الى الشام، بعد الخروج من الوطن، كيف كنا نعد الايام والاسابيع للرجوع. الرجوع قريب، كنا نقول، فلا يمكن ان تستمر الحياة هناك من دوننا. كان المستقبل طينة نعجنها بأيدينا كما نشاء. احلام، تقول جميلة، لهذا سميت ابنتي احلام. كنا نعجن الوهم، واذا انجبت مرة اخرى ساختار اسما ثانيا، تضحك بعمق وترش دخان فمها الى السماء المطبقة على المدينة وغبار الشوارع المتصاعد على شكل بلورات ضوئية. تصمت مصيخة سمعها للشغاث احلام السابحة فوق موج غروب متوهج في طريقه الى الاختفاء. ليل صيفي يلف الوجوه القلقة المنساقة عبر

مسارات حيواتها الماضية، يطغي على التماعات العيون الحزينة الشاخصة نحو المجهول. ليل صيفي فيه نغزة من البرودة، فيه كومة من الحب الصارم المختبيء بين الضلوع. صمت وسكون، وليل الشام عصير للأحلام، وفاكهة للتمني. هل تشعرين بالبرد ياأحلام؟ تسأل جميلة بصوت متعب، فتنفي الطفلة وتخاطب امها بألفة، ودون تحرج من الشاب، ماما سنأتي الى هنا كل يوم فأنا احب هذا السطح. ليس كل يوم، تغمغم الام وتنظر الى الشاب. ولم لا، فانتما على الرحب والسعة متى شئتما. لاتنسي ياجميلة اننا اصدقاء منذ بضع سنوات، مع اننا لم نلتق كثيرا قبلئذ، ولم نكن بهذا القرب. ماما، تزقزق احلام مقتربة بصوت دوري موشك على الطيران، هذا المكان اجمل من غرفتنا، في النهار يمكنني رؤية مدينتنا من هنا، اليس كذلك؟ لا ياحلام، مدينتنا اكثر بعدا مما تتصورين، ولكن من الاكيد ان جدتك بانتظارنا هناك دائما. ماما، دعينا ننام هنا على السطح، انظري فالسماء مليئة بالنجوم، في غرفتنا لانرى النجوم ولاالقمر، عمي، هل يمكننا النوم هنا؟ ويرتبك وجه جميلة فتسبل جفنيها وتحاول عمل شيء ما، يصرفها عن قساوة الطفولة وصراحتها. نعم احلام، بامكانكما البقاء حتى الصباح اذا رغبتما. سآخذ برتقالة، تقول احلام وتمد يدها الى الماعون وتتناول حبة واحدة، فتعاجلها امها مؤنبة: كفاك اكلا، سنذهب، تأخر الوقت والسيارات تزدحم بالناس في مثل هذه الساعة. جميلة، بأمكاني توفير فراش ملائم لكما. ترفض جميلة العرض وتبدأ بلملمة القشور المبعثرة على الطاولة. انها تود بكل جوارحها النوم هنا، الابتعاد ولو ليلة

مساءات شامية

يستيقظ بفم ملوث بالزبد، العينان حمراوان، الملابس تفوح من ثناياها رائحة عطنة، الوجه حامض والهيئة منكسرة. ولما القي عليه تحية الصباح، يرد بتثاقل، يتحاشى الاقتراب خوفا، وكأنني شيطان وليس مجرد امرأة، ثم يمضي الى المراحيض، وهي كائنة داخل البيت، قرب المدخل، ويتجه بعدها، هو ورائحته المنفرة، شعره المنفوش، عيناه المحترقتان من ندم طويل وسهر وتأرق، ليرش المياه على وجهه، ويقف لحظات صافنا على المياه الجارية في حوض الغسيل.

يقتحم المطبخ، فأتعمد الدخول واجد حجة بالحديث معه، بالتقرب منه فالدار خالية، وانا مليئة بالرغبة، فالسرقة لذيذة والقطاة سمينة، سمنها شبابها، لكنه مثل سمكة، يشم النية ويرى الشباك. يقلي بيضه على عجل، يسلق لحمه، يفل جبنه ان كان الفطور جبنا او يسكب دبسه ان كان دبسا، ويهرب مني الى الغرفة، سجنه، قنه، حفرته. افتقدته من البيت مرة واحدة، ليلة رأس السنة، الشعالات في السماء والنار على قاسيون، الطبول تقرع والسيارات تزمر والضجة قادمة من باب توما، تساءلت في سريرتي اين انت الان، ترتدي قناعا في زقاق من ازقة باب توما ام توقد نارا على السفح حيث الشيخ محي الدين. لم يحضر الى البيت تلك العشية، هو الذي كان حضوره اكيدا، وغاب في الليل، نجمة ضالة، قمر مكسوف، لايجد من يعتني به، سألته قبل ان تتوطد علاقتي

به ان كان له مورد ثابت، مال، عمل، وظيفة، تجارة، فرد انه لامال عنده ولاضياع، لاذهب ولافضة، رأسماله رأسه، لكنه يزاول مهنا لاحصر لها، وذلك حسب الوقت والظرف والمزاج.

يشتغل قطافا ان كان الموسم موسم القطاف، والقطاف كما اوضح، حقول شاسعة من المشمش والتفاح والتين والعنب، النارنج والاجاص، التوت والكرمنتينا، سلال وصناديق من الخشب، سلالم يصعد بها المرء الى القلب ليقطف العنب ويحوش التين، يلم النارنج او يجمع الاجاص، يدان ذكيتان، لاتتعبان من القطف ولاتملان من الحوش. والمردود كما قال لايعدو ان يكون، ايجار البيت، شاي المقهى، سينما، ملابس. اما عدا ذلك فلم يصرح به، فثمة في دمشق افواه لاحصر لها، تشفط النقود شفطا. عاهرات المرجة، قمار النوادي، خمور وادي النصارى، زيتون حلب.

اما الصباغة والدهانة وتنظيف المطاعم وتجارة المسابح والمواد القديمة، فلايود الخوض فيها، لانها واسعة الحيل وكبدته اهوالا لايرغب ذكرها، ولكن ماباليد حيلة فهو بحاجة الى ان يأكل ويشرب، حاله حال الاخرين، عندئذ، قلت لزوجي، عطفا وكسب رضى وزلفى، دعنا نعفيه من ايجار البيت، ثلثمائة ليرة لاتعني لنا شيئا، فستان لسعاد، قطعة من قطع اثاث البيت، عقد لؤلؤ، جوهرة زينة، طنفسة، وليمة، يمكن الاستغناء عن واحدة من تلك الاشياء ببساطة. كما ان الغرفة وقبل ان نحولها الى سكن، كانت مجرد مخزن، نضع فيه آلات الحراثة ومواسير المياه المطاطية، سرير ابني محمود الجندي في لبنان، علب المربى المصنوع من

المشمش، لكنه، زوجي، رفض العرض، فقطرة قطرة قطرة، تمتلىء جرة المال، قال لي ومحا زلفاي.

رأيته فاشتهيته.

جسد حصان وقوة ثور، غريب عن البلد، فلا عين رأت ولااذن سمعت، لكن حياءه الزائد اربكني، فهو لايفتح الباب ابدا حين وقوفي في الحديقة.

كنت كعادتي، انا المحصورة بين حيطان البيت لاهم لي سوى المراقبة والحكي، التصيد سرا بين فترة واخرى، كعادتي ارش المياه بالابريق الكبير فأسقي الازهار، لسان الثور، الرازقي، الكرمة، العشب النابت بين الجذور، والصبارات المثبتة على محامل من الحديد، فأكون اثناء العمل عينا على بابه، اذنا على مكانه، اصغي لما يدور في غرفته فلا اسمع بكاءً ولاانيناً، لاصوت صبيان ولانساء، فحساسيتي من هذه الناحية شديدة. لااغار، فالغيرة حمار هرم، لكن مؤجرا كان عندي، وهو من البلد نفسه، قد فعلها مرة وجلب الى البيت امرأة غير محتشمة، وهذا مادعاني الى طرده. ويومها اوضح انه لاجيء سياسي، ولم افهم حقيقة ماتعنيه هذه الكلمة، فهمت فقط انه غريب وبحاجة الى رعاية فمنحته اياها، وماكنت اظن ان اللاجئين السياسيين، يضاجعون العاهرات ويطاردون الصبية، ويتطلعون خلسة الى البيوت والغرف. لكن هوا شبح في مقبرة، شجرة جافة، نهر ناشف، غيمة بلا مطر، لاتأمة، لاصوت، لاآهة، ان كان فيه موضع يشف عن مكامن روحه فهو عيناه. منهما ارى

شهوته العارمة الى النساء، خوفه العميق، ضلالة روحه وتيهان افكاره، اما ماعدا ذلك، فشبح في مقبرة، شجرة جافة، بلوطة محترقة. واحيانا يخيل لي ما ان اقف لتنظيف المزرعة او سقيها، ان جسده منتصب وراء الباب، وبابه خشب عتيق عاصر بناء البيت اول مرة ولم نشأ استبداله، كان يحجب عني سر وقفته لكنه يشي بها. ماالسر في وقفته، لست اعلم، فكلما انحنيت على الورد او كنست ارضية الحديقة او توضأت خلف عريشة الكرمة، يدور بخلدي ان عينيه الصقريتين ترقبانني من وراء الخشب وبإلحاح وفحيح.

لمست غرابة ذلك الشاب في المرة الاولى التي دخلت فيها غرفته. صحيح ان لكل جديد غرابة، لكن غرابته من نوع آخر، نكهة ثانية، وقد تجلت منذ طلتي على محتويات الغرفة: رزم من قصاصات جرائد عتيقة، كتب واقلام ودهونات للشعر والجسد، لحاف عتيق حامل لتخطيطات وخربشات ملونة، والرسم على اللحف والوسائد والاغطية من اعجب مارأت عيناي، ثم تلك الملابس الرثة التي فقدت مبرر وجودها، اللهم الا ان تكون الوحيدة التي يمتلكها، وهذا ماتأكد لي لاحقاً. وفوق الكل، ذلك الشعور الذي يستولي على المرأة حين تجالسه منفردة. شعور لاادري كيف اصفه. لقد اجتاحتني رغبة طاغية كادت ان تدفعني الى الاستلقاء على سريره وفتح فخذي، خذني، كدت اقول.

الرائحة الرجولية، العطش القاتل للمرأة وهو ماكان جسده يصرح به دون مواربة، التقديس الذي يعيشه في حضرة المرأة، خوفه، ضعفه،

الوحدة الجرداء المسورة بجدران اربعة، اذ انه لايملك مرايا ولادواليب، واثاثه حقيبة عتيقة فقط، اجواء تقتت صلابة المرأة وتحيلها الى تراب.

انا اعرف الرجال من عيونهم، وعيناه كانتا خائفتين، عيناه حرب شرسة، جبّانة مقفرة، مستنقع، درة ساعة وساعة قبضة من الرماد، دلّتا على ريبة لاتوصف بالناس، فهو يلتفت يمينا وشمالا ما ان تتطلع الوجوه فيه، حتى انني سألته عما يريبه، عما يرعبه من هذه الحياة. والحق يقال انني طمأنته لكسب رضاه وادخاله الى اعتيادية المنزل، قلت له، البيت بيتك، كلنا عرب امنا حواء وابونا آدم، ولافرق بين العرب والعجم الا بالتقوى.

لكنه ومنذ اليوم الاول لمجيئه اوحى بغرابته، مهنته قطّاف وسنه صغيرة، ماالدافع لمجيئه الى هذا البلد، من هم اهله، امه، ابوه، كيف افلت من الحرب، كيف سافر الى هنا، وماالدافع لحنّتي عليه، اسئلة لاريد التفكير بها، اما اغواؤه، اما شبكه، اما ارواء عطشه الجسدي، فتلك مسألة اخرى.

الغربة سم فليكن الله في عونه.

عندما جاء به الدلال لرؤية الغرفة، وقفت انا خارج الباب، في الحديقة، فغرفته تفتح بابها عل حديقتنا، وراح يحدّق بالجدران والباب والارضية، حدّق بخفة العارف بما تقع عليه عيناه. هنيهة، احجم بصره بعدها عن شقوق الباب وارتد انتباهه عن بشاعة السقف، ثم اطال النظر ودقق، باهتمام مبالغ به، بحديقتنا المتواضعة. ظننته جاء ليؤجر الياسمين

لايصدقه العقل، فالارضية كانت مغطاة بديدان ناعمة كالحرير وحية كسلاميات اصابعي، ملايين، مئات الملايين من الكائنات الضالة مبثوثة في كل مكان: على اللحاف الرث المزركش بالطيور والاشجار ووجوه النساء، تحت سجادتنا العتيقة التي اشتريناها قبل عشرين سنة من تاجر سجاد لبناني، وراء الباب، على الجدران، بين فجوات الورق الممزق والاحذية المشتراة من الارصفة، ارضية غرفتي، مخزننا العتيد نبع من السلابيح البيض افقدني مرآها صواب العقل واتزان الروح.

كلا. ليست من جسده. لااريد ان اصدق ان ذلك الشاب كان مخزنا للدود. كان شاغلي. اتأمله خلسة في المساء وهو وقته المحبب للوقوف في الحديقة. عيناه لم تلمحاني قط، انني انزوي في الظلمة بلاتور، ويحدث هذا عندما انهي صلاة المغرب فأقوم الى الستارة فأسدلها مبقية فرجة ضيقة للنظر. وكثيرا مافجأتني سعاد على هذه الحالة فكنت اتخذ دور من يتطلع الى الجبل او الجيران او غروب شمس قاسيون الاحمر. السماء كانت محط بصره، يتأملها بخشوع قسيس وورع امام، كان يبدو وكأنه يلمح صورا شريفة ووجوها اليفة، يقرأ طالعا بعيدا، يتشمم ويتسمع ويناجي، يصلي قائما ويحج الى مكانات قصية من مكان وقفته.

في مساءات ثانية او صباحات اخرى، يغادر السماء وينخفض ليركع قرب ورودي، يحدق بالورد ويداعب الورق، يلمس الغصن ويمسك الساق، يصفن وليس من سبب لصفناته، في شجرة الكرم او، يتشبث كأنه مجنون بغصن جاف يظل ينكأ به الصلادة الكونكريتية من غير ملل. لكن

رغم تشوفه الزائد الى السماء، ضياعه في واجهات البيوت المجاورة، نظراته النارية الى جسدي والنساء، الا انني لم المحه ناظرا الى فوق، اي الى الطابق الذي نسكن فيه، مع ان ابنتي سعاد تغري الشباب الذين في سنه، وهذا شيء اغاظني وافرحني، اغاظني بسبب احساسي ان ابنتي لاتثير الفضول لديه كالاخريات مع مالها من جمال واضح، وافرحني لأنه يحب النساء المتزوجات، امثالي، كعادة الكثيرين ممن فقدوا حنان الام ورعاية الاسرة، كما يجنبني في الوقت عينه، تقولات الشارع وفضائح النساء والسنة المفلسين.

عندما اكتشفت تعاطيه الخمرة، فسرت سلوكه، جنون عينيه، اهماله لنظافة جسده، هذيانه وصفنته وطوفاناته المسائية في سماء دمشق، نتيجة اكيدة سببها ذلك السم، السائل قبيح الرائحة، فقلت لنفسي ان الواجب يدعوني لتحذيره منه. جعلتني امه، اسرته، وطنه، الا ان الذي اعتاد على سيئة لاينفك عنها. اردت ان اوضح له ان رائحة جسده المنفرة، فوضى شعره، سروحه غير المفهوم، عمله غير المستقر، ضياعه الشامي، ان هو الا الخمرة. وقد اخبرتني اكثر من جارة ان اولئك العراقيين يتعاطون الخمرة كثيرا، فحذرته ورد علي بوقاحة، ماخطر لي انه يملكها، سيمضي الى سكن آخر ان هي اصرت على طلبها بالكف عن الشرب، وقال ايضا ان الحق ليس معها بالتدخل بأمور شخصية لاتعنيها، وكدت انبهه ان البيت بيتي وآخر من يقرر تصرفات القاطنين واولهم هو انا.

اغضبني حقا واوشكت الخيوط بيننا ان تنبتّ، الاواصر ان تنقطع،

الا انني تمالكت زمام روحي وابتعدت عن الغضب، فالغضب دمّلة تأكل الروح والجسد، وحنّ له قلبي. لام ولازوجة ولامعارف، فما كان مني، وبعد يوم واحد، الا ان عدت واخبرته، ان بإمكانه الشرب داخل الغرفة، وليكتم الامر عن الجيران. فالجيران اعينهم مفتوحة كما لو كانوا افاع، وآذانهم ترتشف التقولات والفضائح بلذة، خاصة، اذا انطلقت من بيت كبيتنا، بيت له اكثر من حاسد وعرضة لما لايحصى من العيون.

عرفته يتعاطى الخمرة في احدى المساءات الصيفية. كنا جلوسا امام البيت، في الزقاق، انا وابنتي سعاد وعدد من نساء الجيران، وكان المستأجرون خارج البيت، فلا احد يمكث في الغرف بوقت جميل كذاك. وجاء وحده. طوله كشجرة كمثرى، ومشيته حجل في واد. شعره منفوش وطويل زاد مشيته جمالا على جمال. جاء حاملا بيده حقيبة بلاستيكية منتفخة، فجذب انظارنا كلنا، الصبايا والعجائز، المتزوجات والعوانس، فران علينا الصمت غراب في برّية. وحده كان في الزقاق. رجل واحد ونساء كثار والعيون ثبتت فيه، في مشيته، عينيه، ملابسه، شعر ذقنه الشبيه بأعشاب الربيع، بل حتى في طريقة امساكه مايحمل. لكن وياللهول، ياللفاجعة، لم يستطع الصمود امام نظراتنا، اذ اختلت مشيته، وفقدت خطواته اتزانها، وتلفت يمينا وشمالا، مسح رأسه وحك وجهه وتلك دلائل ارتباك لم تخف على احد. وحين هم بولوج الباب، وكانت درفة واحده من درفتيه مفتوحة، اصطدم كيسه به وانكسرت الزجاجة، فاح السر وعرفنا الامر من الرائحة، فلتلك الخمرة رائحة فاسدة لاتخيل كيف

بطيقها.

وآمنت بعدها ان الخمرة هي السبب في قلقه وتوهج عينيه وتأملاته، تيهان افكاره، انكسارات وجهه وحموضته، هي السبب في تحوله الى بهيمة تعيش في غرفة مليئة بالديدان.

لقد مضى اكثر من شهر على اقامته في بيتنا حين لمحت ديدان غرفته. لم اصدق وقتها، انها آتية منه، فالشهر ربيعي والحياة تدب في كل مكان، وكان ظل البيت يغطي الحديقة، ومن مستأجرينا طالب المدرسة وحده في المنزل. كان الصباح جميلا، كنست في ساعاته الاولى ارضية الحديقة وجلبت ماسورة المياه كي اسقي الزرع، وفي لحظة غريبة شاهدت خيطا دوديا خارجا من العتبة. خيط ابيض يتلوى بشكل مرعب ويحاول الوصول الى جذر الياسمين، والصبار في محامله، واوراق العشب الغضة. ووقفت مبهوتة، وهممت ان اطرق الباب واستجلي السر، لكنني تراجعت مفسرا القضية على انها اساءة التنظيف لاغير، وكثيرا مايحدث ان اهمل الحديقة فتمتلىء بالاوراق المتساقطة والديدان وذروق الطير والاشياء التي يقذفها عفاريت الجيران الصغار من كرات مطاطية وبقايا تفاح ونوى كمثرى وقطع حديد.

ان ذلك الخيط الرفيع كان قادما من غرفته، هذا ماآمنت به في يوم الديدان الاخير الذي رحل فيه.

دُق جرس الباب، جرس الطابق الذي نسكنه، وكنت تلك اللحظة منهمكة بتنسيق ملابسي القديمة داخل خزانة الثياب المؤطرة بالمرايا،

فتوقعت ان يكون الشخص جارتنا تطلب حاجة او الدلال راغبا في رؤية الغرفة الفارغة منذ اسبوع او احد اطفال الزقاق.

لكنني وجدته هو. فوجئت به. فما من عوائده دق الجرس، اذ، كان يسألني عما يرغب ما ان يراني في الحديقة او داخل المطبخ او امام الباب الخارجي. دُهشت لمظهره. وجهه منقبض كالح مذعور، ورائحته خليط من عفونة مني الرجال وعطن الاجساد وفساد دخان السجائر. صوته نشيج وعيناه متعبتان. ومن دون ان نتبادل الحديث اخبرني انه ماض.

في البدء ظننته سيسافر وقدم لاعلامي، وماتبينت قصده الحقيقي الا حين وقعت عيناي على المفاتيح وقد حطّها بتؤدة وسط راحة يدي. لم تتح لي المباغتة فرصة للكلام، عضّتني الدهشة وامسكتني الرهبة. لااريد له تركنا. فتشاغلت بالحملقة بالمفاتيح واكياسه المركونة جانب الباب وضوء الشمس المنسرب بغرابة وغزارة الى الممر الداخلي، وبشيء من التردد وبعد ان ران علينا سكون لامألوف، سألته: هل تنوي ترك البلد، فقال لي، انه لايدري مايأتي به الغد، وسيقيم مؤقتا عند واحد من معارفه.

صوته خدرا كان، مرتعشاً، أغراني ودفعني لمحاولة اقناعه بالعدول عن قراره. ابق هنا مجانا الى ان تلقى عملا ثابتا، انتقل الى الغرفة الخالية اذا رغبت، عرضت عليه حججي كلها فلم تُجدِ نفعا. قلت له ان ادركتك حاجة فما عليك سوى المجيء الى هنا، فنحن اهل، وكان يجيب على عروضي بدمدمة غير مفهومة وبرم يعكسه وجهه بوضوح. كان متعجلا بالذهاب، كأنه هارب من فضيحة. وحقل الديدان ذاك كان هو

فضيحته، مطارده، ماضيه المروّع وحاضره اليتيم.

توارى فتاي الغريب، هام بين حواري الشام في ذلك اليوم الربيعي ولم أره بعدئذ. ولااظن انني سأنسى، من بين آلاف المستأجرين الذين مروا على المنزل، ذلك العراقي الخائف الذي هام على وجهه.

***

سألتني المرأة، الى اين تذهب، ولمحت في عينيها فضولا غير مستساغ لمعرفة المصير الذي ينتظرني، فلم اجد الرغبة لاخبارها بأنني سأعيش في قبو عتيق مع احد الاصدقاء يقع في حي الشيخ محي الدين بن عربي. الامر لايهمها، وستجد مستأجرا غيري.

لقد هزمت تماما في البيت اللعين هذا، حيث تحولت الى اسفنجة مشبّعة بأشباحه الظلامية، واصبح الجميع يدركون ضعفي وهشاشتي.

لم اعد اذكر متى طوح بي الى الشام، اصبحت التواريخ مختلطة علي بعض الشيء، فبعد سكن مؤقت في مساكن الزاهرة، كتب علي ان اجرب احياء المدينة كلها، العتيقة منها والجديدة، النائية والقريبة، الى ان قيض لي الحلول، كطائر غريب، في زقاقنا هذا.

في بدء حلولي هنا، كان الكل يتطلع فيّ، سعاد، الام، المستأجرون، ولطالما احسست بشبابيك الزقاق تراقب خطواتي حين اعود الى المنزل او حين اغادره. السطوح تتملى هيئتي والستائر تنزاح عن

بالشهر ليس بالمبلغ الضخم، حيث استطيع توفيرها رغم عطالتي عن العمل. ولم تقل لي، الشرب ممنوع، جلب امرأة الى الدار ممنوع، دخول صبيان ممنوع، رفع صوت المذياع ممنوع، كلا لم تقل ذلك بوقاحة المؤجرين الذين عرفتهم، وهذا ما دعاني الى الايمان بأنها اسهل وانزه مؤجر شاهدته عيناي في المدينة المؤطرة بقاسيون والمزخرفة بالغوطة. كانت روحي سأمة من المساومة عصر ذلك اليوم، مما دفعني الى القبول بالغرفة رغم سيئاتها الكثيرة، والمحت للمرأة في الوقت نفسه بأنني متعجل بالسكن، فوافقت ايضا، بابتسامة ملكة الزرع، وراعية الاشجار البرية.

وهكذا جلبت اغراضي الى الغرفة بعد يوم واحد فقط من دفع النقود.

كان اليوم الاول اصعب ايامي في البيت، اذ امضيت النهار جالسا داخل الغرفة، لا اجرؤ الخروج خوفا من ملاقاة المستأجرين الاخرين في الممر او المطبخ او المراحيض، فلم اذهب الى الحمام الا تحت جنح الظلام، حين نام البيت وهدأت الاقدام. فأنا اخاف البشر، وأتردد بالحديث معهم، وتلك الصفات رافقتني منذ سنوات بعيدة ماضية، وسبّبت لروحي آلاما عميقة. اما الاواني المستخدمة للطبخ، فقد ظلت مثلي سجينة الغرفة، تتبعثر مابين الكتب واللحاف الملون والاحذية.

وفي اليوم الثالث، اخرجتني المرأة من الورطة.

لاحظت غيابي عن المطبخ، عدم دخولي الحمام، ندرة رؤيتي في الممر، فظنت السبب جهلي لتفاصيل البيت. وهكذا قادتني ظهيرة ذلك

اليوم الى سر المكان وشرحت لي طقوس العيش فيه. مدخل طويل، اجرد، يربط الباب الخارجي بالحديقة، تنفتح عليه ابواب عدة، عرفت منها وجودغرفتين وحمام ومطبخ، كان الحمام معتماً ورطباً،أما المطبخ فله نظام خاص به، من حيث غسل الأرضية واستخدام الأواني. سمّت الغرف باسماء قاطنيها وعرفت أن هناك أثنين آخرين فقط يقاسماني الطابق الأرضي، وكان أحدهم من دير الزور والآخر من حلب. كانت تتقدمني وتشرح تعاليم البيت بلهجة تعليمية صارمة، وحين أنهت تجوالنا في الطابق الأرضي، أرتني جرس الباب الذي يدق في غرفة الضيوف عندهم، وأوصتني بقرعه فيما لو احتجت الى شيء، وكانت المرة الاولى التي استخدمته فيها هي لحظة مغادرتي للمنزل.

لقد احببت غرفتي حقاً.

ومن بين غرفي السابقة كلها، كانت هي الوحيدة التي قضيت فيها أطول مدة ممكنة.لكنها، وبقدر ما كانت تعجبني بعزلتها عن البشر، فهي كذلك فاقمت توحدي وتوحشي، حولتني الى ذئب صحراوي لا يرى حوله سوى الرمال، سوى هشيم حيوات سرعان ما يذروه الريح. انها تنفتح على فضاء دمشقي مليء بالطيور والروائح والزرقة، المح ما ان أقف أمام الباب، قمة قاسيون الجرداء وبحر السماء العجيب وشبابيك البيوت المجاورة التي ما تفتأ تراقبني. اما بابها فهو باب غريب، غرابته متأتية من أنه يقودني، وهو ما حدث لي لأول مرة في حياتي، الى، رياحين، ورود، كروم، وجوه صبايا تحدق خلسة من بعيد، يقودني الى أرض

اسمنتية لطيفة الصقل شكّلت مستطيلاً صلداً حول الزرع يقيني وصاحبة المنزل بلل الشتاء ولهيب الصيف.

كانت المواصفات تلك عاملاً حاسماً في عزلتي.

أزحت نفسي عن القاطنين، واقتصرت العلاقة بيننا على تحية باردة وابتسامات صفراء، وأستعضت عن البشر بروحي، فابحرت في صحرائها وانتبذت قيعانها العجيبة، سافرت بين التخوم التي لم يجرؤ أنسان على وصولها وتهت في كهوف صنعتها أيام صباي، ساعات وساعات من التأمل، لم اقع بعدها، ولحد يوم الهزيمة، على اية حصيلة تذكر. الدائرة نفسها والتيه عينه، وحياتي بحاجة الى منجّم قادر على قراءة طالع خال من الدلائل، خال من الأمارات، فالحاضر يلقيني دوما الى الماضي، والماضي يتلقفني بأصابع حديدية لها مخالب ومناشير وأشواك. دائرة، انها دائرة مغلقة، سأحطمها ذات يوم، اما كيف ومتى، فهذا مالم اهتد اليه. ولعل المرأة هي الشخص الوحيد الذي ادرك ماأعانيه من وحدة، فكانت تحاول التقرب مني والحديث الي، فكان كلامنا يدور في البدء عن الأزهار، تشرح لي مواسم الزرع واوقات السقي ونوعية الاسمدة، وعن هموم البيت وماأحرزت ابنتها سعاد من نجاح في دراستها، وحين اصبحت الالفة بيننا اشد، اخذت تسألني عن مورد رزقي وكيف اعيش في الشام وماهي مهنتي في العراق. اجيب بالاقتضاب مرة واسهب بالاجابة مرات حسب مايقتضيه السؤال الموجه. وفي الحقيقة، صارت الشخص المفضل للحديث من بين القاطنين اجمع، عدا عن انني وجدت الحديث معها ضرورة

ملحة، فهي في جميع الاحوال، امرأة، بعجز ثقيل وعيون سود وسيقان بيض وعطر نسائي مثير.

ان المرأة قضية لاتؤرقني. صحيح انني محروم منها، الا ان جعبتي تحتوي على الكثير من الوسائل للحصول على اللذة، ساعدت تأملاتي وذئيبتي المقيدة بين اربعة جدران على اكتشافها او، خلقها.

تأتي يوما بدون تخطيط وبتخطيط وفبركة اياما اخر.

في الباصات المزدحمة استطيع تمييز المرأة الراغبة، من التي تنفر عند اللمسة الاولى، وحين اقع على طريدتي اتقدم ببطء خلل الحشود المتدافعة بين المقاعد، واجد المكان المناسب خلفها، ولشد ماكانت التكويرات الصلبة لهنّ، تثير فيّ جوعا غريبا لاينطفيء. كنت اتجاهل العيون المحيطة المترصدة المشتعلة مثلي بالرغبة، واغيب في عالم الرصّ واللمس، اللّز والالتصاق، وراء، امام، اعلى واسفل، اتحول الى كرة مدببة الجانب تتمثل التكويرات المتقابلة وتتغلغل في اللحم الحار، وتساعد اهتزازات الباص على انطفائي السريع فأغادر في اول موقف.

في ازقة الشيخ محي الدين، اشتري خبزا من افران غاصة بالنساء، اتصدق به بعد دقائق على الشحاذين والارامل الواقفات امام الجامع. احتشد مع المحتشدين امام بائع خردوات في القابون او مخيم اليرموك او الحريقة واتدافع في الاسواق مع الباعة والمشترين، ازور بيوتات مشبوهة تقبلني منذ البداية للهجتي الضامنة للامن والسلامة، واقضي بعضا من وقتي دائرا على حارات باب توما وعند سائقي سيارات الاجرة الواقفين

بكسل في ساحة المرجة.

لا. لااعدم الوسائل ابدا.

في البيت ايضا، مثلما في السوق، كان بابي المشقق الخشب، ظلمة غرفتي، انتباذ الحديقة كي تحتل موقع بصري، توفر لي متعة ولذة فريدتين. يتجسد المشهد قدامي كل يوم تقريبا، وماعلي الا ان اغترف منه متى شئت. فمن عادة المرأة ان تجلب مكنستها وانبوب المياه في الصباح، وتبدأ أولا بجرف مايلقيه اطفال الجيران في الحديقة من نوى التمر والفواكه وبقايا الخبز والكرات الزجاجية، ثم تنحني بعدها على الارضية لتزيل غبارها المشتت، فتنكشف الساقان ويبرز ملتقى الفخذ، ربلتان وركبتان، اصابع وشرايين، فأضيع في بياض واسبح فوق عري. تتحول بسنواتها غير المعدودة الى انثى بلا زمن، تتحول الى تكويرة، لحم، عروق حارة الدماء، فأنقض على نفسي كعقاب شرس، كانما انفاسي كسمكة تحت المياه. لازفير ولاشهيق، لانبض ولاقهقهة، عيون فقط، عيون تمد الشباك من خلل الخشب والعتمة. ويجري كل هذا من وراء الباب، في الصباح مثلما في الظهيرة، في الضحى مثلما في الغروب.

في ليالي الوحدة تلك، الليالي التي قضيتها وسط جدران غرفتي سميري اصوات الشارع واشباح البيت والتخيلات، كان الخمر هو الاوفى من بين كل الرفاق المحيطين. كان يدفع عني خوفي الشديد من الليل، كان مشجعي، بطلي، سيوفه تقارع، او، تستجلي اطياف ماض ممزق واشباح اصدقاء اكلتهم الحرب فما عدت استحضر سوى اسماءهم، اما وجوههم

فتأتي متلبسة توابيت من خشب ودككا للموتى واكفانا مخاطة على عجل وثلاجات مانعة للتفسخ. لاتقود خطاي الى جنان وارفة، كلا، انما تشيع داخل جسدي وعقلي، شيئا من اللاابالية، تشيع، وقتية الحاضر ولاجدوى ما سيأتي. فيه، الليل، لايتبقى معي سوى الخمرة.

وكما يحدث دائما، تسلمني التجوالات في الشام، التعب اليومي بعد عمل مرهق، شهوتي المسفوحة برخص، زجاجة الخمرة الفارغة، تسلمني الى فراش مترب، قذر لم ير النور منذ ان حللت في غرفتي هذه. لكن النوم يستعصي هو الاخر. احاوره، اتوعده، اغريه، اتربص به فلا يستجيب. وهي لعبة لعبتها معه على مدار ازمنة طويلة حتى اوشكت ان اجيد ادوارها، ولكنه ومثل حاو بارع، ينفلت مني كل مرة ويزيغ. وهذا بالضبط ما جعل العمل شاقا لايقوى جسدي على الاستمرار فيه.

كانت الام تنصحني بالاكل الجيد، وعدم التدخين وترك الخمرة، والا سأتحول الى هيكل عظمي، كما قالت. اما عمّال القطاف، فكانوا يلاحظون بطء صعودي الى اشجار التفاح والمشمش وتعثّري بالاغصان وسقوطي اكثر من مرة عن السلم، فكانوا ينكرون عليّ ضعفي وينصحونني بالنوم باكرا وهجر الذكريات المرّة، فما هي الا غمّة سرعان ماتزول وغيمة آن لها ان تنقشع.

كنت افيق باكرا على دقات ساعة توقظ الموتى واول ماافتح عينيّ اضيء المصباح الوحيد المدلى من السقف وابقى بضع دقائق سابحا في بخار نعاس لذيذ، ساحر، اجر جسدي من امواجه الزبرجدية بمشقة فائقة،

اردد لنفسي هو، نظافة الرأس، القلب، الضمير، نظافة الداخل، ولم اكتشف خطأي الا حين دب الدود الى غرفتي، دخل فراشي، ولوّث جسدي، اكتشفت بأن النظافة كل لايتجزأ، وجاء الاكتشاف متأخراً جدا على أية حال.

وربما بسبب ذلك لم تواتني الجرأة لعقد علاقات مع نساء الجيران. اذ كنت اتخيل مسبقا فشل علاقة مثل تلك. تأتي الفتاة الى الغرفة. تدخل بابي الخشبي فتواجهها رائحة عفن السجائر وفسيخ البزورات وعطن الملابس. ترى الفوضى وتعصرها الظلمة، فلاتطيق ذلك، تهرب، مخلفة اياي كطير مكسور الجناح، وكانت خيالاتي الموصلة الى نتيجة منطقية كتلك، هي التي اوحت لي بإستحالة العلاقة مع بنات الجيران مع اهتمامهن بي. كما ان عزلتي، استجرار حيواتي السابقة، الاخفاقات المتتالية على رأسي صنعت مني شخصا فاقد الثقة بجمال وجهه، ووسامة جسده، وروعة مشيته. قالت لي الام يوما وبأسلوب جريء لم اعهده من امرأة، بأنني محط انظار فتيات الزقاق، ولم يضف الي اطراؤها اية قوة داخلية، انما اعتبرت الامر لايعدو ان يكون شبكة نصبتها لاصطياد فتوّتي.

من بين فتيات الجيران، كانت سعاد اكثرهن تطلعا، المحها تتلصص من خلف الستائر غروبا او حين اخرج الى الحديقة لاخاطب قاسيون المنتصب مواجهة البيت كشيخ جليل، ورغم اهتمامها الزائد عن الحد فأنا لم اخطِ اية خطوة نحوها، انا كتلة من خوف. امرأة البيت المقابل حاولت

ايضا جذب نظري الى مفاتنها اثناء نشرها للملابس على حبال غسيل يحجبها السياج عني، وهي نفسها التي حدثتني عنها صاحبة البيت: حلبية جميلة القد، مفاتنها تنادي المارة وسواق السيارات وطلبة المدارس المراهقين، انها كمشرى معطوبة، تفاحة نالها الدود، عجينة مختمرة اكثر من اللازم، هكذا حدثتني عنها في الايام السابقة لرحيلي. الا انني لم احاول. حكمت مسبقا بالفشل على محاولاتي. وقد بلغ منها ذات ليلة انها استحالت الى رجل واستحلت الى امرأة، حاولت هي وانكمشت انا، مدّت مجساتها ولذتُ انا داخل شرنقتي، صعدت السياج ورمت شباك عيونها ودخلت انا الغرفة مشيحا وجهي.

حدث ذلك قبل بضع ليال من انتشار الدود في غرفتي.

عدت متعبا من جولان طويل في باب توما، يائسا كنت، وحيدا، مهملا، فاستحممت لازيل عن روحي غشاوة التعب الدبقة، ثم خرجت الى الياسمين. ثمة وكما في اي يوم آخر، شعشع الرازقي تحت بصري بألوانه الحمراء، تويجات واسعة واريج طاغ. ازدانت الكرمة بأوراق من الزمرد ولامست بهفهفة رقيقة سماء الشام المضاءة بقمر موشك على السقوط في متاهة قاسيون. وكعادتي حين اقف في الحديقة، شبحت عيناي في السماء، والسماء هي مداي الوحيد، طازجة اراها على الدوام، وفيها ارى نجوما من ورق والوانا مارأتها حواسي من قبل، أفلاكا سابحة وبحارا من المرجان.

في لحظة التجلي تلك لم اكن اتوقع رؤيتها، اذ اطل وجهها بغتة

من الكرمة المقابلة، كرمة الجيران، بعد ان ازاحت الورق وبعثرت الاغصان، وواجهتني بثبات لاعهد لي به. لم اطقه، كنا وحيدين، فارتعبت لمنظرها مع مافيها من روعة. كانت عيناها تفاح شام وجيدها حورا طرطوسيا. فمها زيتونة حلبية وشعرها عناقيد عنب، فلم اطق مارأيت، لا لأنني فوجئت بالجمال الطالع من الكرم، ولامنعني الحذر من استجلاء سر تلك المرأة، لكن البيت كان مظلما والحديقة توحي بعالم شبحي طالما اخافني وانا مستلق داخل السرير. تصورت ان الامر لايعدو ان يكون كابوسا من كوابيسي المطبقة علي يوميا. ودون ان افه بكلمة، ركضت الى الغرفة واغلقت بابي، حدقت من شق الخشب فلم ار الا تويجات لسان الثوروأوراق الكرم والعساليج التي على هيئة ديدان وافاع. ومع انني تركت ذلك البيت والى الابد، فأنا وحتى اللحظة لااستطيع الجزم بأن مارأيته هو حلم، كابوس، وسواس، وهم، شبح خارج من الكرم، ام ، جارتنا الحلبية سيئة السمعة.

رؤياي تلك، كانت الاخيرة قبل اكتشاف الدود.

ولشكّي فيما بات يجري من حولي، ظننت ان مشاهدة السلابيح اوهام لااكثر، مثلها مثل الحلبية تلك او نظرات المرأة من خلف ستائر الغرفة العلوية او الاشخاص الذين كانوا يجوبون الحديقة ليلا بخطى ثقيلة.

لم اعد اعي متى كانت الليلة التي غزتني فيها الديدان.

كل مااذكره انني كنت آنذاك، اسبح ببخار خمرة متغلغل في

خـلاياي، حين لاحظت ذلك السلبـوح الابيض، الدودة اللدنة، الخـيط البروتيني، وهو يتسلق الكتـاب الذي اقرأ، وكـان طوله لايحس. يتلوى كأفعى قميئة وقد اختلط مع الكلمات، فتارة يصير راء واخرى يصير سينا، نقطة طورا وفارزة طورا ثان، فما كان مني الا ان اطبقت الكتاب وسحقته سحقا. محوت النقطة وازلت الفارزة.

ولم اكتشف انني داخل مرحلة دودية الا ذلك الصباح. الصباح الذي وجدتني فيه، طافيا على بحر من الكائنات الدودية المنشأ، ذات الاذرع الحريرية والافواه الاميبية، فما كان لي، وكما عودتني السنوات الماضية، الا ان الوذ بالفرار.

لأنّ شاكر مولع بلحظات التماس مع المجهول، مع التيار الخفي وراء التيار الظاهر. فأن قصصه تجهد في الافلات من حدود الزمان والمكان، تسعفها لغة، رغم حسيتها وارضيتها، مفتونة بخصب الوجود الذي هو وليد وحدة الحسيّ. وحدة الوعي واللاوعي. وحدة الكائن والطبيعة، واخيرا وحدة الأحياء والأموات...

ليست هناك مساحات فارغة، فلغة القاص المتوهجة الذكية تتوائب مع كثافتها لتملأ الحواس جميعا. ان حرارتها وقلبيتها لاتترك مجالا للعب الذهني. ان الحياة كخبرة وتجربة، والحياة كفن، في نصوصه النثرية، واحدة. والمخلوقات التي تخرج من لغته الارضية هذه لاتنفرد في نصوصه وحدها دون ظلها المتلصص الموارب خلفها، دون الحياة الأخرى، غير الأرضية، بحضورها المفاجيء.

فوزي كريم

(جريدة الشرق الأوسط)